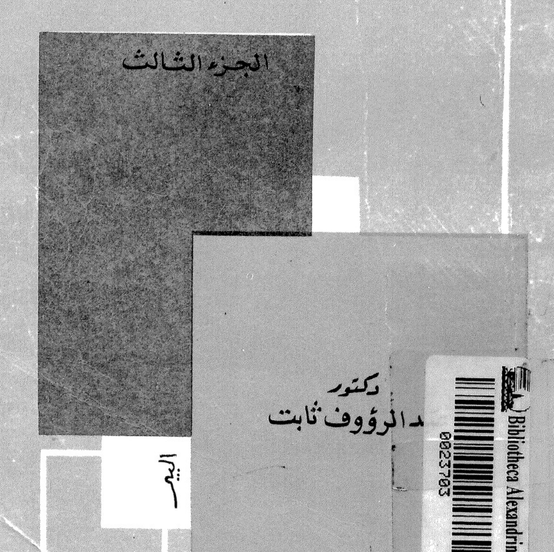
الطبّ النفسى المبسّط



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الطب النفسي المبسط

الجـزء الثالث

د. عبد الرؤوف ثابت



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

إهـــداء

الى عمر رأفت عنـدما
يقرأ ويفهم

مقدمة

يقع هذا الجزء الثالث من مجموعة الطب النفسى المبسط بين الجزء الأول العلمى والجزء الثانى التطبيقى ، ففيه المواضيع العلمية البحتة بجانب التطبيق فى شكل قصص • ولا يعتقد أحد أن الخيال العلمى فى شكل قصص ، التطبيق، ليس فى واقع الأمر علما ، وانما هو نوع من الترفيه عن القارىء فقط • لهذا أقول ان العلم والخيال العلمى لا يبعدان عن بعضهما كثيرا • وليس الخيال العلمى هباء وهراء ، بل انه الواحة التى يستجير بها العالم من صحراء الواقع العلمى •

وعندى أن الخيال العلمى ، فى آى شكل كتآمل فى بحث أو كتابة قصة مفيدة ، هو الواقع التطبيقى للطب النفسى العلمى فى صورة مقبولة مفيدة للقارىء غير المتخصص •

اذا كان الناس يتطلعون ويطلبون المعرفة فلتتقدم المعرفة اليهم فى شكل مبسط ولكنه آقرب الى الواقع حتى يأتى بالفائدة المرجوة • هذه هى وجهة نظرى من اصدار مجموعة الطب النفسى المبسط •

ولا يفوتنى أن أذكر مع خالص الشكر أستاذنا العظيم محمد سمير ابراهيم عبد العزيز وكيل أول وزارة المالية سابقا والحائز على وسام الجمهورية لتفضله برسم توضيحات هـذا الجزء ، الثالث ، كما فعـل مع الجـزء الأول . كما أشـكر سكرتيرى الأستاذ محمد عوض عـلى مسـاعدتى فى الأعمال الكتابية الخاصة بكتبى واعادة « تبيضها » مرارا وتكرارا .

د. عبد الرؤوف ثابت
١٣ شارع ٢٦ يوليو ـ القاهرة

الشخصية أبعادها.. وكيف نقيسها

مقدمة

قال صحفى أديب ، يعتبر كصانع لثورة ٢٣ يوليو وملهم لقائدها ، يصف شخصية الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وكان الناس يسألونه عنه عندما قامت الثورة :

ــ فيه من « الجمل » كل شيىء ٠٠ اسمه ورسمه وصبره ٠٠ وقوة تحمله ٠٠ وأيضا قدرته المذهلة على الثأر ٠

أظهر الصحفى الأديب انطباعه الخاص عن الزعيم ، وكان الصحفى ، بطبيعة الحال ، واقعا تحت تأثير النصر الذى أحرزه الزعيم بقيامه بالثورة ٠ ولكن هذا الوصف بنى على مقارنات ، انطباعات ، فى عقل الواصف تجمعت لديه لسنوات عديدة دون أن يكون لها أساس علمى ٠ وتشبيه الزعيم بالجمل ليس فيه غرابة ، فمنذ آلاف السنين قسم الهندوس الرجال الى ثلاثة أنواع : الثور والحصان والأرنب اذا تشابهت سلوكهم وتلك الحيوانات ٠ كما قسموا النساء الى غزالة ومهرة وفيلة !

قبل أن أبدأ فى تناول الشخصية بالتحليل العلمى ، أحب أن أوضح للقارىء بعض العوامل الفسيولوجية التى تؤثر فى تكوين وأداء الشخصية ، مما قد لا يكون له علم بها أو قد أخذها فى المدرسة ثم نسيها . وتعرف الشخصية بأنها مجموعة الأوصاف والصفات التى تميز انسانا عن غيره .

١ ـ الجهاز العصبى

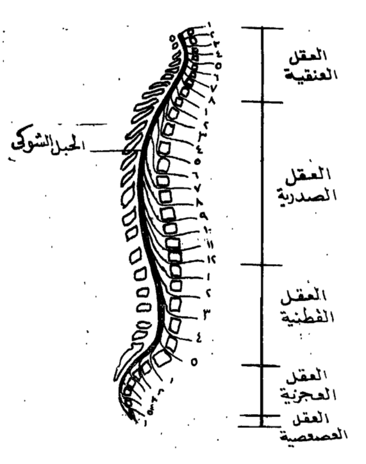
يتكون من المخ والنخاع (الحبل) الشوكى والأعصاب. ويوجد النخاع الشوكى داخل العمود الفقرى بطوله . أنظر الشكل رقم ١

وللنخاع الشوكى وظيفتان رئيسيتان :

أولا : توصيل الاشارات العصبية من المخ الى جميع أجزاء الجسم وبالعكس .

ثانيا : يقوم الحبل الشوكى بدور «الافعال المنعكسة»، ولا تتطلب هذه تدخلا من مراكز المخ العليا ، ولا تعتمد على التفكير والتعقل ، وتقوم بها « دوائر » فى الحبل الشوكى تصل الاحساس بالحركة مباشرة ، فمثلا اذا مست يدك دبوسا يكون رد الفعل أن تسحبها بعيدا عن شكة الدبوس فى الحال دون وعى أو ارادة .

ويقال ان السلوك الناشىء عن الغريزة من الأفعال المنعكسة ، ولكن الغرائز تشمل مراكز أعلى من مراكز النخاع الشوكى .. فمثلا اذا رأيت خطرا جريت بعيدا تلقائيا .



العمود الفقري وبداخله النخاع الشوكى

ينقسم المخ الى قسمين ، نصفين ، كرويين متصـلين فى الوسط بقنطرة . والواقع أن فى كل منا مخين لا مخ واحد **كما سيلى شرحه فيما بعد وينقسم كل نصف مخ الى فصوص هى** انظر الشكل ٢ :



مراكز المخ

١ ــ الفص الجبهى أو الفص المقدم (ويحتل جبهة الرأس داخل الجمجمة : هو الجزء الأكثر نموا فى الانسان بالمقارنة الى سائر الحيوانات ، ومركز للملكات (الوظائف) العقلية العليا كالحكم والتقدير والتدبير والعواطف والأحاسيس الراقية وخاصة المعنوية · أى تلف فى الفص الجبهى يؤدى الى نقص الحاسة الاجتماعية والقيام بتصرفات لا تتفق والايتيكيت مع زيادة غير مناسبة فى اظهار العواطف، يبكى أو يضحك أكثر من الداعى واللازم ·

أما الجزء الخلفى من الفص الجبهى فوظيفته الحركات

الارادية ، وهذا متصل بالنخاع الشوكى هبوطا الى أعصاب الحركة الى العضلات ٠

٢ ـ الفص الجدارى ويختص بتلقى الاحساسات من جميع أجزاء الجسم عن طريق النخاع الشوكى ٠

٣ ـ الفص المؤخر ويختص باستقبال الاشارات البصرية من العينين ٠ ويعطى للصورة معنى ٠

٤ ـ كذلك الفص الصدغى ، يختص باستقبال الاشارات الصوتية من الأذن ثم يحيلها الى معنى ٠

يصل الفصوص السالفة الذكر فى كل نصف مخ ، مناطق اتصال بسببها تترجم وتفهم الأحاسيس المختلفة وتقدر قيمتها ونوعيتها ، ثم تربطها بغيرها من الاشارات الحسية التى تورد معها فى نفس الوقت أو فى أوقات سابقة ٠ والأرجح أن تكون مناطق الاتصال ، وهى عديدة ومركبة ، هى مناطق الذاكرة الحسية والبصرية والسمعية ٠ وهذا الربط بين أشكال الذاكرة المختلفة هو الذى يمكننا من الكلام والقراءة والكتابة واجراء العمليات الحسابية ، ويمكننا من معرفة الجهة اليمنى من اليسرى ، وتحديد أماكن جسمنا ، وتعين الاتجاهات والاهتداء الى الطرق أثناء سيرنا ٠ وتعيننا مراكز الاتصال على حفظ الأغانى والعزف على الآلات الموسيقية ، أى ربط الكلام بالأنغام ، وتحليل مكونات الصور وألوانها ٠

كذلك يوجد فرق بين عمل المخ الأيمن والأيسر ٠ فالنصف الأيسر يختص بالتعبير ، والقدرة على استعمال اللغة ، ولذلك يسمى بالمخ اللغوى أو اللفظى ٠ وتختص أيضا بالتحليل المنطقى ٠ وعمل النصف الأيمن ادراك

الأوامر وتنفيذها . ويقال انه الجزء البارع فى الملكة الموسيقية .

وعلى كل فعمل كل نصف مخ يكمل عمل النصف الآخر حتى يكونا وحدة .

ب ـ الجهاز العصبى اللا ارادى (الذاتى)

يسيطر هذا الجهاز العصبي على العضلات اللاارادية كالقلب وجدران الاوعية الدموية والجهاز الهضمى والتنفسى والغدد الهضمية . هذا الجهاز يعمل ذاتيا بدون ارادة أو تدخل من الانسان وبغير علمه . ولكنه باتصاله بالجهاز العصبى المركزى يكون خاضعا لرغبات وسيطرة المخ . يتكون هذا الجهاز من مجموعتين تقوم كل مجموعة بعمل مضاد لعمل الأخرى لكنهما يتوازنا اذا عملا معا .

١ ـ المجموعة السمبثاوية (سيمبثاوية = متعاطفة) :

وهي عبارة عن تجمع من الأعصاب على شكل حبلين يمتدان على جانبى العمود الفقرى ويخرج منهما ألياف عصبية تتصل بأعضاء الجسم المختلفة . وعمل هذه المجموعة وهو :

١ ـ توسيع حدقة العين ورفع الجفن العلوى حتى يستطيع الانسان رؤية أكبر مساحة ممكنة مما يرى ، كما أنه كلما قل الضوء اتسعت الحدقة ، واذا زاد الضوء ضاقت الحدقة بفعل أعصاب المجموعة المضادة (الباراسبميثاوية) . ويلاحظ أن حركة حدقة العين فى هذه الحالة حركة منعكسة ، أى لا ارادية ولا شعورية .

٢ ـ زيادة سرعة ضربات القلب وازدياد قوة انقباضه ويلاحظ الارتباط بين هذه الخاصية والتفكير والعاطفة .

٣ ـ بطء التنفس وتوسيع الشعب الهوائية .

٤ ـ ارتخاء عضلات الجهاز الهضمى والمثانة البولية .

٥ ـ تنبيه عضلات الرحم . قد يؤدى الانفعال الشديد بجانب عوامل أخرى الى الاجهاض .

٦ ـ انقباض عضلات الأوعية الدموية مما يسبب ارتفاع ضغط الدم . الانفعالات ترفع من ضغط الدم وقد يكون لها علاقة بمرض ارتفاع الضغط .

٧ ـ تقلص عضلات جذور الشعر مما يسبب وقوف الشعر في حالات الخوف والفزع . انقباض الأوعية الدموية السطحية مما يسبب شحوب وجه الانسان عند الخوف ، ولما كانت هذه تؤدى الى انخفاض حرارة الجسم الخارجية فان العرق يكون باردا . وتكف الغدد اللعابية عن الافراز فيحدث جفاف فى الفم (شعره يقف ، ولونه يبيض ، وريقه ينشف ، ويعرق عرقا باردا ـ خائف) كما يلاحظ انه فى حالة الحزن ، أو الفرح الشديد ، تتنبه الغدد الدمعية فتفيض

٨ ـ تنبيه الغدة الكظرية (فوق الكلية) لافراز مادة الأدرينالين التى تنشط الكبد لافراز السكر من النشاء المخزون فيه وهذا يعطى الانسان زيادة فى القوة والنشاط .

٩ ـ انقباض عضلات الأوعية الدموية للقضيب مما يسبب عدم الانتصاب وسرعة القذف . يعتبر الخوف والقلق من أهم أسباب العى الجنسى النفسى نظرا للتنبيه المستمر للمجموعة السمبثاوية .

٢ ـ المجموعة الباراسيمبثاوية (بارا = بجانب أو متزامل)

وعملها عكس تماما المجموعة السمبثاوية ، ومكانها فى « المخ المتوسط » و « النخاع المستطيل » وهما منطقتان صغيرتان نسبيا وتقعا بين المخ والنخاع الشوكى ، أى انهما يقعان فى قاع الجمجمة • كذلك يوجد جزء منها فى الأعصاب الشوكية العجزية ، أى فى الحوض •

وكما فى المجموعة السمبثاوية ، يوجد فروع عديدة للمجموعة الباراسيمبثاوية موزعة على كل أعضاء الجسم تقريبا •

يمكننا تشبيه عملى المجموعتين السمبثاوية والباراسيمبثاوية بعمل دواستى البنزين والفرامل فى السيارة ، السمبثاوية تسرع والباراسيمبثاوية تبطىء ، وكلاهما تحافظان على حسن أداء وسلامة السيارة أثناء سيرها •

ويتلخص عمل المجموعة الباراسيمبثاوية فيما يلى :

١ ـ اضاقة حدقة العين وخفض الجفن العلوى عند تعرض العين للضوء •

٢ ـ الاقلال من سرعة ضربات القلب •

٣ ـ زيادة سرعة التنفس وضيق جدر الشعب الهوائية •

٤ ـ تقلص المرىء والمعدة والأمعاء الدقيقة ، أى الشعور بالجوع والعمل على سرعة الهضم •

٥ ـ ادرار العصارات الهضمية ، المعدة والبنكرياس وعصارة الكبد الصفراء والغدد اللعابية •

٦ ـ انقباض عضلات المثانة البولية مما يؤدى الى كثرة التبول (يلاحظ أن هذا يحدث للطلبة فى الصباح قبيل بدء ميعاد دخول الامتحان) .

يحلو للبعض تقسيم شخصيات الناس الى نوعين حسب تغلب (سيادة) احدى المجموعتين اللاإراديتين على الأخرى :

١ ـ النوع السيمبثاوى ، ويتميز حامله بوفرة النشاط وكثرة الحركة . يستيقظ نشطا ويبدأ يومه العملى مبكرا . ويميل الى سرعة الانفعال (عاطفي) .

٢ ـ النوع الباراسيمبثاوى ، ويتميز صاحبه بقلة الحركة وبطئها ، وأخذ وقتا طويلا فى الاستيقاظ . وكما سبق أن قلنا ، فى الانسان السوى (الطبيعى) تعمل المجموعتين فى توافق وتلائم .

جـ ـ الهرمونات والغدد الصماء

تصب الغدد الصماء افرازاتها فى الدم مباشرة فيصل افرازها الى جميع أعضاء الجسم فى حوالى ربع دقيقة . تتلقى الغدد الصماء تنبيهاتها من الجهاز العصبى المركزى ، كما أنها تؤثر فيه بدورها ، لذلك يعتبر البعض الغدد الصماء كأحد مكونات الجهاز العصبى .

من الغدد الصماء ما يلى :

١ ـ الغدة النخامية (وتسمى الغدة القائدة أو المايسترو) :

مكانها قاعدة المخ وتوجد فى تجويف عظمى ليحميها ، وتتكون من ثلاثة فصوص ، أمامى وخلفى وبينهما فص وسط .

يفرز الفص الأمامي خمسة أنواع من الهرمونات وهي :

١ — هرمون النمـو ، ويعمل أثناء فترتي الطفـولة والمراهقة • ويؤدي نقصه الى تكوين الرجـل الطفـل بحيث لا يزيد طوله عن مترا وربع ، مع تناسق الأعضاء ، وجمال تقاطيع الوجه وكأنه ملاك •

٢ — هرمون منشط للغدة الدرقية •

٣ — هرمون منشط للغدة الكظرية (فوق الكلية) •

٤ — هرمون مدر للبن الأم •

٥ — هرمون منشط للغدد الجنسية (المبيض والخصيتين) •

٢ — الغدة الدرقية :

توجد في مقدمة الجزء الأسفل من الرقبة ، أمام الجزء العلوي من القصبة الهوائية عند اتصالها بالحنجرة • ويزداد حجم الغدة الدرقية طبيعيا وبصفة مؤقتة أثناء فترات البلوغ والحيض والحمل • أما وظيفة الغـدة الدرقيـة فهي تخزين عنصر اليود الذي يدخل في تكوين هرمونها «الثيروكسين» وهذا لازم للنمو أثناء الطفولة والمراهقة ، وعمليات التمثيل الغذائي في الجسم •

وتتحكم الغدة الدرقية في وزن الجسم ومقـدار المـواد الدهنية التي تترسب في انحائه ، وكذلك في حفظ حرارة الجسم •

التنظيم والتحكم في مقدار الذكاء •

تنظيم الحالات الانفعالية ودرجة اظهارها •

٣ ـ الغدة فوق الكلية (الكظرية) :

وهما غدتان واحدة فوق كل كلية ، وتتكون الواحدة من :

أ ـ النخاع فى الوسط ويفرز هورمون الأدرينالين ، ومفعوله شبيه بمفعول المجموعة السيمبثاوية • يؤدى الأدرينالين دورا هاما فى الحالات الانفعالية ، ويساعد الجسم على تعبئة طاقاته لمواجهة الأخطار الطارئة بشكل ايجابى وفعال • يهيىء الأدرينالين الانسان للقيام بعمل نشيط متواصل •

وقد يسبب زيادة افراز الأدرينالين الى حالة قلق نفسى قد يكون شديدا مصحوبا بسرعة ضربات القلب وارتفاع فى ضغط الدم ، وزيادة السكر فى الدم ، وشحوب اللون ، وهذه الحالات النادرة قد يكون سببها ورم فى نخاع الغدة الكظرية •

ب ـ قشرة الغدة الكظرية :

تحيط بالنخاع وينشطها أحد هورمونات الغدة النخامية • وهى ضرورة للحياة بحيث أن استئصالها يؤدى الى الموت فى مدى أربعة أو خمسة أيام • لا يستطيع أحد أن يتحمل الشدائد الناتجة عن أضرار البيئة سواء كانت الداخلية (فى جسم الانسان) أو الخارجية اذا لم توجد قشرة الغدة الكظرية • والمقصود بالشدائد ، التعرض للبرد ، اجتياز الامتحانات ، ولاصابة بالالتهابات والحروق والجروح ، أو أى مرض من الأمراض •

وتفرز القشرة هورمون الكورتيزون الذى يقى الانسان الشدائد • وهورمون الألدوسترون الخاص بحفظ نسبة

الصوديوم والبوتاسيوم فى الدم • وهورمون الأندروجين الذى يشبه الهرمونات الجنسية التى تفرزها الخصيتان والمبيضان •

٤ ـ الغدد الجنسية :

ولها نوعان من الافراز :

(أ) خارجى وهى البويضة فى المبيض ، والحيوانات المنوية فى الخصية (الخلايا التناسلية) •

(ب) الهرمونات، التستوستيرون فى الذكر، والاستيرين والبروجستيرون فى الأنثى •

وتلخص فعل التستوستيرون فيما يلى :

١ ـ نمو أعضاء التناسل • خشونة الجلد ، زيادة نمو العضلات وقوتها ، خشونة الصوت ، ظهور شعر اللحية والشارب والعانة ، وهذه تسمى الخصائص الجنسية الثانوية •

٢ ـ يزيد التستوستيرون من نشاط وحيوية الحيوانات المنوية ومن ثم قابليتها للاخصاب ، كما يحافظ على سلامة الأوعية المنوية التى تفرز الحيوانات المنوية •

٣ ـ يزيد النمو العاطفى للمراهق ويقوى لديه الدافع الجنسى •

ويفرز المبيض هورمون الايستيرين الذى يعمل على :

١ ـ نمو أعضاء التناسل ، وظهور الخصائص الجنسية الثانوية فى المرأة فى مرحلتى البلوغ والمراهقة ، ويلاحظ

أن الايستيرين يوقف نمو العظام لذلك فالنساء عادة أقصر من الرجال ، ويعمل على تكوين وابراز الثديين •

٢ ـ تنشيط الدافع والاتجاه الجنسى •

٣ ـ ترسيب الدهن وتوزيعه فى الجسم بالشكل الانثوى •

هناك هورمونات أخرى اكتشفت حديثا فى الجهاز العصبى المركزى ، عبارة عن مجموعة مخدرات ، يقوم المخ بافرازها ليخفف عن الانسان آلامه الجسمية والنفسية • وتسمى هذه المواد بالاندورفين والانكيفالين • تفسر لنا هذه المواد لماذا يستجيب الأشخاص لمختلف الآلام بدرجات مختلفة ، بعضنا يتحمل الآلام الشديدة ، والبعض يصرخ من أقل ألم •

كما تفسر لنا هذه المخدرات الطبيعية فينا كيف يقع أى انسان فريسة الادمان على المخدرات العظيمة ، الهيروين والكوكايين ، ويصبح عبدا لها • المخدرات الخارجية توقف افراز المخدرات الداخلية وتحل محل مفعولها • وبتكرار الاعتماد على المخدرات الخارجية يتوقف افراز المواد المخدرة الطبيعية اطلاقا ، وعليه يصبح المدمن عبدا للمخدرات الخارجية التى تمنع عنه الآلام الجسمية والنفسية التى كانت المخدرات الداخلية تمنعها عنه قبل أن تلغى المخدرات الخارجية عملها •

ولعلاج الادمان على المخدرات العظيمة يجب حجز المدمن فى مستشفى خاص ومنع الزيارة عنه مدة كافية، عادة شهر، حتى تتكون المخدرات الداخلية بعد الانقطاع عن تناول المواد المخدرة • وبديهى أنه بدون « الحجز » فى المستشفى لا يمكن للمدمن أن ينقطع عن ادمانه بسبب الآلام ، وهذا يفسر لنا

سلوكيات المدمنين الغير أجتماعية والاجرامية للحصول على المخدرات بأى الطرق ٠

ماهى الشخصية ؟

تعرف الشخصية بمجموع الصفات التى تميز انسانا عن غيره ٠ هذه الصفات تشمل ، فيما تشمل ، الذكاء ، التعليم ، الثقافة ، الانطباعات الخاصة ، وجهات النظر والاهتمامات ، التصرفات ، والفلسفة فى الحياة ٠٠ الى آخره ٠ كذلك صحة الانسان الجسمية ، نوع عمله ، مكانته الاجتماعية ، الى غير ذلك من مقومات البيئة التى يعيش فيها الانسان ٠

ولا يقول أحد بأن هناك شخصيات بعدد الأشخاص ، مادام كل واحد يختلف بالضرورة عن الآخر ، لأن هذا غير صحيح ، فالشخصيات تتشابه وتتكرر بين الناس حتى أنه يمكننا تقسيم الناس الى آنماط (آنواع) محددة علميا كما سيأتى شرحه فيما بعد ٠

وليست الشخصية الصورة الفوتوغرافية للشخص كما يريها للناظرين ، لأن الصورة تظهر الشكل الخارجى فقط ولا تبين ما يعتمل داخل صاحبها ٠ واذن ، فدراسة الشخصية تقوم على تحليل العوامل الداخلية والخارجية التى تساهم فى تكوينها ثم أظهرتها على النحو التى هى عليه ٠

كيف تتعامل الشخصيات فيما بينها ؟

لنبتعد قليلا عن جفاف السرد العلمى الى واحة الخيال لنشاهد معا المنظر الرومانسى التالى :

شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، طالب جامعى فى السنة النهائية ، سليم الجسم ، قوى البنية ، وسيم الطلعة ، أبهى منه لم تلد النساء · الشاب يسير عبر حديقة الأورمان فى طريقه الى بيته · جائع يحلم بأكلة دسمة لذيذة من يد أمه ، ينام بعدها قليلا ثم يصحو نشطا ليستذكر دروسه فالامتحانات على الأبواب · الجو ربيع دافىء والسماء صافية والحديقة تصدح بأنغام الطيور · يلمح الشاب عن قرب فتاة فى مثل سنة ، أجمل منها لم تر قط عينه ، جالسة على مقعد مستطيل فى ظل شجرة وارفة · واتت للفتى فكرة التعرف بالفتاة فربما فاز بها · تقدم نحوها بخطوات مترددة الى أن وصل الى المقعد وجلس عليه بقرب الفتاة ·

ملأ الفتاة اعجاب بالفتى ولم تتمالك أن ابتسمت له ، وفرح الفتى بالابتسامة المشرقة التى تعطفت بها عليه الفتاة وأحس بالحب · وكما قال الشاعر ، نظرة فابتسامة فسلام فكلام ·· الى آخره ·

ترى ماذا كان يحدث داخل الفتى والفتاة أثناء حدوث ذلك المشهد الرومانسى ؟

وقعت صورة كل منهما على شبكية عين الآخر ، ومن شبكية العين الى الفص المؤخر للمخ حيث مركز الابصار فأدرك كل منهما وجود الآخر ، ومن مركز الابصار الى الفص الجبهى المقدم حيث الادراك الكامل مع الارادة والنزوع ، ومنه الى مؤخر الفص الجبهى حيث مركز الحركة ، الى النخاع الشوكى الى أعصاب الجسم الى العضلات ، فسار الفتى فى اتجاه الفتاة الى أن وصل الى المقعد الجالسة عليه وجلس بجوارها ، ثم بدأا يتكلمان ·· . . . .

قف !

لو أن هذا فقط ما حدث داخل جسم الفتى والفتاة لكنا قد شاهدناهما يتصرفان كانسانين آليين (روبط) بدون روح أو حياة ٠

ولكن تدخل الجهاز العصبى اللاارادى مع الجهاز العصبى الارادى أكسب الفتى والفتاة حيوية ٠ تسارعت ضربات قلبيهما ٠ وارتفع ضغط الدم ، واتسعت حدقات العيون حتى تتملى عين كل منهما بالآخر ٠ كما سكنت معدة الفتى وزايله شعوره بالجوع الذى كان يشعر به قبل رؤية الفتاة ، وارتفعت نسبة السكر فى الدم فاحس الفتى بالنشاط يدب فيه ٠

وساعد الذكاء ، والتعليم ، والتثقيف ، والتربية فى إختيار نوع الحديث الذى جرى بينهما فشدهما الى بعضهما أكثر ٠ ولعبت الذاكرة دورها فى الايتيكيت الاجتماعى الذى يتبع عادة فى مثل هذه الحالات حتى يثمر التعارف ٠

قف !

ولكن اشتراك الجهازين العصبى الارادى واللا ارادى لا يكسبا هذا المشهد كثيرا من الرومانسية الشاعرية الا اذا اشترك معهما الجهاز الهورمونى ٠

منذ أن أبصرا بعضيهما وأدركا مايمكن أن يحدث بينهما، أفرزت الغدد الجنسية افرازاتها ٠ فاوجدت دافعا جنسيا عند كل منهما أرسل الدفء والحب والرغبة فى القلبين ٠ وتوردت الوجنات من الكسوف وحرارة العاطفة ٠ هكذا ، امتزجت الكيمياء والكهرباء والمغناطيسية بين الفتى والفتاة من ناحية

وبينهما وبين الكون • وكانت النتيجة ، كما رأينا ، سعادة وفرحة وتألقا •

هكذا تضافرت عوامل ثلاثة فى اخراج المشهد الرمانسى الجميل ، الاعصاب الارادية ، واللا ارادية ، والجهاز الهرمونى •

الشخصية والهرمونات

كل عالم يعتقد أن تخصصه أهم التخصصات • قال لى طبيب متخصص فى الطفيليات (البلهارسيا ، الأنكلستوما ، الأميبا ، الديدان المعوية) أن سبب تأخر العالم الثالث الوحيد هو وجود الطفيليات • كذلك يعتقد علماء الهورمونات انها العامل الأساسى فى تكوين الشخصية • ولا عتاب كبير ولا انتقاد ، فكل عالم يرى العالم من زاوية علمه الغارق فيه ، وربما مقللا من وجهات نظر وآراء الآخرين • وسأترك للقارىء الحكم على الموضوع ، الشخصية والهرمومات ، فيما لو كان لعلماء الهرمونات الحق فى نظرتهم الى موضوعهم كما سنبينه ببعض التفصيل فيما يلى :

يقسم علماء الهرمونات « الشخصية الهرمونية » الى خمسة أنواع هى :

١ ـ الشخصية النخامية :

تفرز هذه الغدة ما يدعى بصفات الرجولة وهى ، التفوق الذهنى ، والحزم ، وبعد النظر ، والاتزان العاطفى • وزيادة افرازها فى الرجل يؤدى الى حيوية دافقة ، وعضلات قوية ، مع قدرة كبيرة على ضبط النفس

وكبح جماح الشهوات . كما تدفع أحيانا الرجل الى القسوة في السلوك عندما يرى أن القسوة يمكن أن تحقق رغباته . ويتميز الفلاسفة ، والغزاة كالاسكندر الأكبر وجانكيزخان ونابليون ، والناجحين في مجالاتهم بزيادة خلقية (طبيعية) في افراز الغدة النخامية .

واذا اختل افراز الغدة النخامية أصبح الانسان ميالا الى الراحة والدعة ، سريع التعب ، جسمه بدين مترهل ، وعقله متبلد . وقد تظهر عليه أعراض الانحرافات الجنسية .

ويقرر الجزء الخلفي من الغدة النخامية صفات الأنوثة ، كلين الجانب ، ورقة الشمائل ، والتعاطف ، والفضول ، وسرعة التأثر والتقلب العاطفي . وتصبح المرأة اذا زاد عندها افراز هذا الجزء من الغدة ذات قوام رشيق كغصن البان ، وجلد ناعم كالحرير رقيق ، وعينين حوراوين وصوت ناعم . واذا زاد افراز هذا الجزء الخلفي من الغدة النخامية في الرجل فهو قصير بدين ، ذو دماغ كبير بالنسبة لجسمه . ومن هؤلاء الشعراء والموسيقيون ونوابغ الفن .

ويؤدى اضطراب نشاط الغدة النخامية الى السلوك الاجرامي . ومن هذا النوع ، كما قال العالم لامبروزو « المجرمون بالميلاد » حيث لا تأثير للبيئة ، حسنة كانت أم سيئة ، على سلوكهم الاجرامي .

٢ ــ الشخصية الدرقية :

نشاط هذه الغدة في حدود الطبيعي يؤدى الى النشاط والنزوع الدائب الى الحركة وسرعة اتخاذ القرارات والبت فيها بالتنفيذ . يصحو المرء مبكرا ، ويعمل طول اليوم بلا كلل ،

ولا ينام الا متأخرا · وهو نحيف القــوام متناســق ملامح الوجه ·

ونقص الثيروكسين ، افراز الغدة ، فى حدود الطبيعى يؤدى الى كثرة النوم ، والتأخر فى الاستيقاظ ، والشـعور بالاجهاد مع المجهود ، والبــلادة ، والقصــور فى التحصيل العلمى ·

٣ ـ الشخصية الثيموسية :

توجد غدة « الثيموس » خلف جدار الصدر الأمامى فى الأطفال المولودين الى سن الخامســة ، ثم تبــدأ فى الضمور وتختفى عند البلوغ · وأحيانا لا تضمر هذه الغدة ويستمر نشاطها فتطبع صاحبها بصفات طفولية ، فالصــدر ضيق ، والقوام نحيل ، والجلد ناعم رقيق ، والوجه خفيف اللحية ·

وأصحاب هذه الشخصية لا يتحملون كثيرا الجهد العضلى، أو مواجهة مشاكل الحياة وصعابها ، وأحيانا يتعودون عـلى الكذب · ونتيجة للقصور والضعف الجنسى فقــد يستهترون بالأخلاقيات ، وقد يتحولون الى احتراف الاجرام ·

هل تحقق حلم الدكتورة أصلان ؟

اهتدى الخيال العلمى عند بعض الأطبــاء الى أن دوام الشباب مرتبط بالابقاء على نشاط الغدة الثيموسية · وكان أن اكتشفت الدكتورة الرومانيــة « آنا أصــلان » أن مادة « البروكايين » ، التى تستعمل كبنج موضعى ، لها خاصية الابقاء على نشاط الغدة الثيموسية ، فيتوفر للانسان شبابا دائما (ولا داعى لذكر النظرية الكيميائية التى بنيت عليها هذه الفكرة الجميلة جدا فهى معقدة بالنسبة للقارىء) ·

أطلقت الدكتورة أصلان على البروكايين مادة « هـ ٣ » ووضعته فى حقن • كان ذلك فى أواخر الخمسينات ، وذاع صيت الدكتورة وقوبل اكتشافها بالتكبير والتهليل خاصة من الكهول والشيوخ • وطبقت هذا العلاج (السحرى !) على بعض الشخصيات المصرية أثناء زيارة لها لمصر سنة ١٩٧٨ •

٤ ـ الشخصية الجنسية :

اذا ضعفت الغدد الجنسية قبل الأوان أصيب صاحبها على صغر سنه بأعراض الشيخوخة • فينطفىء لون الجلد ويتجعد ويتنمش ، وتتجمد الابتسامة على الوجه ويتغضن • ولشعور أصحاب هذه الشخصية بالضعف الجنسى بالنسبة الى أقرانهم فانهم يختلقون قصص المغامرات العاطفية ويغالوا فيها • ويصابوا فى النهاية بالنرجسية (حب الذات) والانغلاق على أنفسهم ، الانطوائية ، والبعد عن الناس •

٥ ـ الشخصية الكظرية :

لما كانت الغدة الكظرية خاصة بالطوارىء والأزمات المفاجئة ، فان الشخصية الكظرية تتميز بالقدرة على التفاعل السريع مع الأحداث عند المواجهة بالخطر •

وعندما تكون الغدد الدرقية والنخامية والكظرية فى حالة توازن ايجابى فان أصحابها يكونون رواد مجتمع وزعماء ذوى عزائم قوية واصرار لا يكل أو يمل •

والأنثى الكظرية ، حتى ولو كانت مكتملة الأنوثة أصلا ، لا تخفى اتجاهها الرجالى ، وتحاول شق طريقها فى الحياة الى القمة ، وتعمل على اشباع دوافعها وحوافزها

بعزيمة جبارة • من هؤلاء ، ربما ، مسز ثاتشر وأنديرا غاندى وجولدا مائير •

أما المصابون بنقص فى الغدة الكظرية فى حدود الطبيعى فيتميزون بالتردد وقصور العزم ، وعدم القدرة على الصمود ، والاحساس السريع بالتعب الاجهاد لأقل مجهود • لما كان الأدرينالين لا يفرز بكميات كافية لمواجهة المواقف المتأزمة الطارئة التى تحتاج الى اصرار وعزيمة ، فان المصابين بهذا النقص معرضون للأزمات والصدمات النفسية • وهم المنسحبون من الحياة ، والهاربون من مواجهة المسئوليات والالتزامات • ومنهم من وجد ضالته عند الهروب من الصعاب فى المخدرات •

وعلاج هذه الشخصية بتعويضها بهرمونات الغدة الكظرية • وربما هم ما يطلق عليهم بالشخصية الخاملة •

تطبيق النظريات الهرمونية على المشاهير :

كان العالم الانجليزى الشهير شارلس داروين ، صاحب نظريات النشوء والارتقاء ، والبقاء للأصلح ، فى النصف الأول من حياته صاحب شخصية نخامية درقية • وكانت عبقريته وتوقد ذهنه دليلا على نشاط هاتين الغدتين • أما اعتلال صحته الدائم واصابته بالخمول بعد الظهر الى المساء فى النصف الثانى من عمره فيرجع الى نقص افراز غدته الكظرية • أما القلق المستمر الذى كان يعانى منه فمرده الى نشاط الغدة الدرقية •

وعندما ضمرت غدته الجنسية فى السنوات الآخيرة من عمره ، نشطت الغدة الكظرية تعويضا عن نقص الغدة الجنسية ، وتحسنت حالته فاصبح آقل قلقا وآكثر استرواحا

والكاتب الايرلندى الأصل « أوسكار وايلد » صاحب الأعمال الأدبية الانجليزية الشهيرة كانت له شخصية تيموسية دفعته الى سلوك دروب الانحراف الخلقي والشذوذ الجنسى •

وكان نشاط الزعيم النازى الألمانى هتلر نشاطا نادرا، وخطبه مليئة بالانفعالات النارية، لأن شخصيته كانت درقية • أما قسوته وابادته لعديد من المدنيين بطرق جهنمية فتعود الى نشاط غدته الكظرية • وفى أواخر أيامه تغلب على سلوكه وتفكيره نشاط الغدة الدرقية على ما عداها من الغدد فأصيب بالنحافه والقلق المستمر وحدة الانفعالات بلا داعى مما جعل الزمام يفلت منه فى النهاية •

مازال نابليون فى التاريخ شخصية ساحرة • ويؤكد أن شخصيته كانت نخامية بعض مقتطفات من أقواله أيام نشاط غدته النخامية :

ـ النجاح صانع العظماء

ـ العباقرة كالنيازك ، قدرهم أن يحرقوا ليضيئوا عصرهم •

ـ الشرفاء لا يصلحون لشىء ، وفى السياسة الأخلاق لا معنى لها •

ـ قد تنتقد العظيم وقد تمدحه ، ولكن العظماء لا يتأثرون بالنقد ولا يتوقفون أبدا •

ـ الأعمال العظيمة لا تكون وليدة الصدفة أو الحظ ، بل العبقرية ، ومن النادر أن يفشل العظماء فى مشروعاتهم الكبيرة •

ـ ليس هناك سوى سر واحد للتحكم فى العالم ، كن قويا •

ـ الجرأة في الحرب هى أفضل مقياس للعبقرية ٠

وعندما تعرضت غدة نابليون النخامية للضمور ظهرت عليه البدانة والتكرش ٠ وانهارت روحه المعنوية ٠

ومن أقوله حينئذ :

ـ لم أخطىء الا حينما أسلمت أذنى للمستشارين ٠

ـ من القمة الى الهاوية خطوة اوحدة ٠

هذا ، ومازال ينقصنا التحليـل العلمى الدقيق المبنى على التحليـل الدقيق لكميـات الهرمونات فى البول والدم لاثبـات نظريات الشخصية الهرمونية وعـلاج انحرافاتها بالتعويض الهرمونى ٠ من المعروف أن الهرمونات تحل محل بعضها الآخر باختلاف بعض تكويناتها الكيميائية ، وبعض الهرمونات تقـوم بوظائف توافقيـة مع هرمونات أخـرى المفروض أن لها عكس تأثيرها ، فمثلا هورمون الاندروجين الذكرى يقوى الدافع الجنسى فى المرأة السوية ٠

قيـاس الشخصيـة

تقاس الشخصية بعدة طرق أقدمها أقل علميا وأحدثها أكثر علميا ودقة ٠ ويلاحظ أن **العوامل التي تؤثر فى تكوين الشخصية هى :**

ا ـ عوامل حيوية ، وهذه تشمل الصحة عامة ، تكوينـا ووراثة ، الهرمونات ، التغذية ، اختـلاف الكيمياء داخـل الجسم ، والأمراض وخاصة أمراض الجهاز العصبى ٠

٢ ــ عوامــل جغرافية ، من المــلاحظ أن كل شعب من شعوب العالم له خصائصه و « شخصية » أفراده ٠

٣ ــ أسرة الفرد من حيث التكوين والحالة الاجتماعية والثقافية ٠ كل انسان صنيعة اسرته ٠

٤ ــ عوامل فى الأم تؤثر على نمو الجنين وصحته أثناء فترة الحمل ٠

علاقة الشخصية بشكل الجسم :

من أقدم النظريات التى عنت بدراسة الشخصيــة هى تقسيم الشخصيات حسب شكل أجسام اصحابها ٠

قسم « كريتشمر » اجســام الناس الى اربعــة اقسام ، القصــير السمين ، الطــويل النحيف ، الرياضى العضــلى ، والخليط من الأنواع الثلاثة :

كما قسم « شيلدون » فى أمريكا أجســام النــاس الى ثلاثة أنواع :

١ ــ السمين ، وهو مرح ، لطيف المعشر ، محب للحياة المريحة والقعدات الطرية والأكل والشرب ، بطيىء الانفعال وعميق النوم ٠

٢ ــ النحيف ، وهو عادة متــوتر ، سريع رد الفعــل والحركة ، غير اجتماعى ، دائم التعب ، قليل النوم ٠

٣ ــ الرياضى العضلى التــكوين ، وهو محب للــزهو والظهور ، محب للتنافس والتعدى ٠ للأسف لم تفــد هاتان النظريتان الأطباء فى شيىء لأنهما لم تبنيا على أسس علمية سليمة ٠

قسم « كارل يونج » الطبيب النفسى السويسرى المشهور الناس الى قسمين كل قسم على طرف نقيض من الآخر ، الانطوائى والمنبسط ، ويوجد المنطوى والمنبسط في نفس الوقت ، ومن هؤلاء من هو أكثر انطواء ومن هو أكثر انبساطا • (أنظر النظريات النفسية فى الجزء الأول) •

وباختصار ، المنطوى يرى الدنيا من خلال وجهة نظرة هو ، ولا يمتزج بسهولة بالناس • أما المنبسط فانه يرى الدنيا من خلال عيون الناس ، ولذلك فهو اجتماعى بطبعه • وعادة يتعلم الناس كيف يعتدلون فى اتجاههم نحو الحياة مع الوقت فيصبحوا مزيجا من النوعين • وكل نوع له عمله الذى يختاره ويلائمه (أنظر الشخصية وأمراضها فى الجزء الأول من كتاب الطب النفسى المبسط) •

برحيل « كارل يونج » عن العالم انتهت نظريات « الأنواع » السابقة وحلت محلها نظريات « السمات » • تعرف « السمة » (الصفة أو الخصلة أو الميزة) على أنها ما يختلف بها شخص عن آخر ويعرف بها على طول المدى • عادة تجمع السمات فى متناقضات مثل :

مرح ـ حزين ، مصدق ـ شكاك ، ثابت ـ عصبى ، متحمل ـ ضجر ، عطوف ـ فظ ، كريم ـ بخيل ، ذكى ـ غبى ، إلى آخره •

ولما كانت هذه السمات كثيرة جدا وأغلبها متشابهة ومتكررة فقد رؤى اختصارها تحت عنوانين رئيسيين يأتى تحت كل منهما سمات عديدة يتوصل اليها من منقيم الشخصية ، سواء كان طبيبا أو محللا نفسيا ، بواسطة ما يدعى بـ « تحليل السمات أو الصفات » ، **هذان العنوانان هما :**

١ ـ الانبساطية ضد الانطوائية •

٢ ـ العصابية ضد اتزان الشخصية •

ويأتي تحت الانبساطية ، الاجتماعى ، والمنطلق ، والخالى البال (لا يحمل هما) ، المرن حسب الظروف، المندفع، المحب للظهور ، الحيوى ، النشط ، المتفائل • بينما يأتى تحت عنوان الانطوائية ، المتحفظ ، المهتم المنشغل البال ، المتعاطف المعتمد عليه ، الحاضر الذهن ، الأقل تفاؤلا •

كما أن الناس الذين ينضوون تحت العصابية نجدهم ، متوترين ، قلقين ، متعكنني المزاج ، حساسين للنقد والكلام الجارح ، لا يقر لهم قرار ، ومتقلبى العواطف • بينما المتزنون نجدهم مرتاحى البال ، لينى الجانب ، معتدلى العواطف ، يعتمد عليهم ، وهادئين •

ولعل الفوائد التى تجنى من تجميع السمات الى نقيضين هى تصنيف الناس بين النقيضين فمثلا ، هناك المبذر ، والسخى ، والكريم ، والواعى ، والحريص ، والمقتر ، والبخيل •••• الى الشحيح •

معظم الناس ، بطبيعة الحال ، يقعون فى المنتصف بين النقيضين ، وقليلون جدا من يقعون على طرفى النقيضين • فالشخص الشجاع يقع فى المنتصف بين المتهور والجبان •

يحتج البعض بأن « تفصيص » الشخصيات على هذا النحو غير واقعى بحجة أن لكل شخصيته المتميزة والتى قد لا تخضع تماما لأى من التقسيمات، ولكن العلماء هم العلماء ، عقلهم منظم مرتب ، ولذلك يحبون وضع كل انسان فى « قالب » معين •

تقيم الشخصية بطريقتين :

١ ـ يصف الشخص نفسه بأن يجيب عـلى أسـئلة فى استبيان عن ميوله ، ومشاعره ، وسلوكه ، الى آخره ٠

٢ ـ الاخبار عن سمات الشخص بواسطة آحـد يعرفه جيدا ، أو من ملاحظة سلوكه ٠

تقيم الشخصية تبعا لنظريات التحليل النفسى :

فى التقييم السابق ، تحليل السـمات ، كان العـامل الشخصى للعميل المراد تحليل أو تقييم شخصيته يتدخـل ، وعيا أو بدون وعى ، فى تحـريف الاجابة ممالا يتفق مع الواقع ٠ ماذا يفعل القارىء لو واجهنـاه باستبيان يحـوى ٥٥٠ سؤالا عليه أن يجاوب عليها باحدى هـذه الأجوبة ، صحيح ، غير صحيح ، لا أستطيع أن أقرر مثل :

ـ لم أفعل أى شيىء خطر لأنى آخاف الأخطار ٠

ـ نادرا ما أحلم أحلام اليقظة ٠

ـ كان أبى ، أو أمى ، يجبرنى على طاعته اذا عارضته ٠

ـ أحيانا ، تتسابق أفكارى فلا آستطيع اللحاق بهـــا بالكلام ٠

قد تزهق أو تمل أو لا تفهم السؤال تماما فتعلم فى أى من الخانات الثلاث ، صحيح ، غير صحيح ، لا أسـتطيع أن أقرر ، كيفما اتفق ٠

أما تحليل الشخصية تبعا لنظريات علم النفس ، فرويد، يونج ، أدلر ، والفرويديون المحدثون ، فانها تبعد العـامل

الشخصى للشخص المراد تقييمه من التقييم • ولكنه يدخل التحيز لنظريات مدرسة المحلل أو المقبم فى التقييم • فمثلا :

١ ــ يعطى أصحاب مدارس فرويد اهتماما كبيرا للجنس فى نمو الشخصية ، ولا تعطيه مدارس أخرى •

٢ ــ بنيت نظريات فرويد على أساس مرضى نفسيين ، ولذلك قد لا تتفق مع تقيم الشخصيات الطبيعية السليمة (السوية) •

٣ ــ على الرغم من الادعاءات فان مدرسة فرويد وغيرها من مدارس التحليل النفسى لم تبنى وتتوخى الأسس العلمية المتبعة أكاديميا • فمثلا ، يصعب تحديد ما هى « الشخصية الشرجية » وكيف تتصرف !

٤ ــ أغفلت بعض مدارس علم النفس ، ثم تداركتها مؤخرا ، تأثير البيئة فى تكوين الشخصية ••

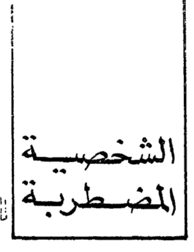
لماذا تتعب نفسك ؟

هناك وسائل أخرى لمعرفة وقياس الشخصية لا تهم الا المتخصص • معظم الناس ، الا قليلا جدا ، يقعون فى حدود الشخصية السوية (الطبيعية) والا انهارت الدنيا على رؤوسنا ، ولما قامت مجتمعات ، ولما عقدت زيجات ، وصفقات ، ومعاملات ، ولما كانت مدارس ، ودواوين ، وشركات ، ومصانع ، ومتاجر ، وملاهى ، وشقق وعمارات سكنية وادارية ••

الشخصية المضطربة أو الشاذة أو المريضة لا يمكنها مع الوقت التعامل مع الشخصيات السوية ، والعكس صحيح •

المجهد حقا ، والصعب التعامل معها لصعوبة اكتشافها هى الشخصية الحدية ، وتقع بين الشخصية السوية والمريضة .. بين بين ، لا هذه ولا تلك .

وسيجد القارىء نموذجين من الشخصية الحدية فى قصتين فى هذا الكتاب .



الشخصية المضطربة

هى ، كما يقولون ، شخصية تبحث عن مؤلف ، لأنها تمثل التطرف عن حدود الشخصية الطبيعية • وأصحاب الشخصيات المضطربة عادة ما يقاسون آنفسهم من اضطراب شخصيتهم ، أو لا يقاسون منها ولكن غيرهم هم الذين يقاسون من معاشرتهم • كم من زوجات يقاسين من اضطراب شخصية أزواجهن ، بينما الأزواج آنفسهم لا يقاسرن ، ولا يستطعن الفكاك منهم لأنه لا مكان لهن يذهبن اليه اذا طلبن الطلاق •

والاضطراب يظهر على الشخصية المضطربة فى شكل سلوك (تصرفات) خاص بكل شخصية ويميزها عن أنواع أخرى من الشخصيات المضطربة • هذا السلوك المضطرب يبدأ عادة فى سن صغيرة ، قد يكون قبل سن المراهقة ، ويستمر بذاته لا يتغير مدى حياة الشخصية المضطربة • **وهذا يدلنا على أن علاج الشخصية المضطربة صعب لسببين :**

١ ـ أن أصحاب الشخصية المضطربة لا يطلبون العلاج الا نادرا جدا ، لأنهم لا يرون اضطراب شخصيتهم ويعتقدون أنهم على حق رغما عن شكوى الغير المتكررة منهم •

٢ ــ ولأن العلاج ، اذا وافقوا عليه ، يتطلب جهدا ووقتا طويلين جدا وذلك بالتحليل النفسى العميق دون سواه ٠ ولا تنفع معهم العقاقير لأنها توقعهم بلا فائدة فى براثن الادمان ٠

يجمع بين الشخصيات المضطربة أربعة محاور توجد فى كل أنواعها وهى :

١ ــ عدم المرونة وصعوبة التفاهم معها بالاقناع ٠ قد ينقادون أو يتفاهمون مؤقتا ثم لا يلبثوا أن يعودوا الى سيرتهم الأولى ٠

٢ ــ عدم القدرة على التكييف مع الجو (البيئة) العام ٠

٣ ــ عادة يسببون متاعب أو اضطراب فى مجالاتهم العملية والاجتماعية ٠

٤ ــ الجأر بالشكاوى من أعراض جسمية أو نفسية أو كليهما ، وغالبا ما يداون أنفسهم بطرق شتى كاللجوء الى العقاقير المسكنة والمهدئة والمنومة ، أو الطلاق والزواج ، أو القمار أو الاضرار بغيرهم أو أنفسهم ٠

وفيما يلى بعض نماذج للشخصيات المضطربة مما قد يكون القارىء قد صادفها فى حياته فيتعرف بسهولة عليها ، وأغلب الظن أنه لم يصادفها لندرة حدوث الشخصيات المضطربة فى المجتمع ٠

١ ــ هو شديد الحساسية الاجتماعية ، شكاك ولا يثق عادة فى أحد ، جامد العواطف لا يبديها بسهولة ٠

دائما يتوقع خدعة أو ضررا من الآخرين ٠ متنبه لما

قد يحدث له من تهديدات ويأخذ حذره منها قبل وقوعها المتوقع • يميل الى الغموض حتى يبعد عنه آذى قد يأتيه من حيث لا يحسب • لا يتقبل بسهولة نصيحة أو لوما حتى ولو كان مخطئا ، ودائما يشك فى ولاء الغير واخلاصهم له • تراه يهتم دائما بالمعانى الخفية التى وراء المعانى الظاهرة ، والنوايا الخفية وراء النوايا الظاهرة • وهو لهذا كثير المناقشات والاحتجاجات ، ويهتم أكثر من اللازم بالتفاصيل الجانبية أكثر من لب الموضوع •

وهو دائم التوتر ، لا يرتخى ، وكأنه منشى ، وغالبا ما يهاجم محدثه بالكلام اذا أحس ، ولو خطأ ، بأنه مهدد منه •

وكما أنه انتقادى ومدقق مع الغير فهو لا يتقبل انتقادا بسهولة من أحد • يفتقد روح المرح والفكاهة ، ويبدو دواما هادئا رزينا ناشفا ، بينما يقول عن نفسه أنه هادف ، منطقى ولا يقيم ، لذلك ، وزنا كبيرا للعواطف •

قد يراه البعض نشيطا ، هماما ، طموحا ، وقديرا فى عمله ، ولكن الغالبية تراه عدائى الطبع ، عنيد ، محاذر ، وناشف لا يلين • عادة ليس له أصدقاء أو خلان لأنه يثير فى الغير عدم الارتياح اذا كانوا معه • يتطلع الى السلطة والجاه ويغير ويحسد من هم أعلى منه مركزا وأكثر نفوذا •

٢ ــ جامد بارد العواطف ولا يحمل عواطف دافئة أو رقيقة للآخرين • لا يهتم بأن يمدحه أو ينتقده أحد ، ولا يكترث لشعورهم • يميل الى العزلة وعدم الاختلاط وليس له فى الدنيا الا صديق أو اثنين غالبا ما يكونا من أقربائه •

وهو عادة مسالما ، غير عدوانيا ، مبهما غير واضح من ناحية أهدافه ، غير حازم فى قراراته وتصرفاته • غير مهتم

بما يجرى حوله ، كأنه ولا هنا ، سارحا فى ملكوته وأحلام اليقظة ٠

ولأنه لا يستطيع الاختلاط بالغير بسهولة عادة لا يتزوج وان تزوج لا يلبث أن يطلق ٠ آما النساء فيقبلن الزواج مضطرين اذا فرض عليهن ٠

وقد يهتم بالسحر ، والخرافات ، وما وراء الطبيعة ، والغيب ، التنجيم ، تبادل الخواطر على البعد ، الحاسة السادسة ، وما أشبه من الأمور التى عادة لا يشغل نفسه بها أصحاب الشخصيات الطبيعية انشغالا عميقا متصلا مثله ٠

٣ ـ هذا الاضطراب فى الشخصية يصيب النساء أكثر من الرجال بسبب ظروف التنشئة ، ونظرة المجتمع ، خاصة الانفصالى ، اليهن ، ولأن الصعوبات التى يواجهنها أكثر بكثير من الذكور خلال فترة المراهقة والخطبة والزواج ٠

وتمتاز هذه الشخصية بعدم نضوج العاطفة وتقلبها المستمر مع عدم القدرة على البقاء على حال واحد من العاطفة والمزاج ٠ تثور بسرعة وتهدأ بسرعة ٠ سريعة الايحاء ، تتصرف بعواطفها والهامها أكثر من الفكر والمنطق ، ولذلك فهى تسبح مع أى تيار بأقل مؤثر ، تصدق كل ما يقال لها دون التحقق ن صدقه وتفاصيله ٠ من هذا ما تعتقده من اصابتها ببعض الأعراض والأمراض التى تقرآ عنها فى مجلة أو جريدة يومية ، أو تسمع عنها من الأصدقاء ، آو تراها فى مريض ٠

تحب أن تكون فى وسط دائرة الاهتمام من الغير ومحور جاذبيتهم ، لذلك فهى حين تتكلم آو تتصرف تفعل ذلك بشكل واضح مسرحى مبالغ فيه ٠ ومن هذا آنها تعنى كثيرا وعلى

الدوام بزواقها الفاقع ، وعطرها النفاذ ، ولبسها المزركش البراق الألوان ، وحليها المبرقشة · ومع أنها تبدو شديدة الحساسية الجنسية الواضحة التى لا تنى تستعملها لاثارة وجذب وايقاع الرجال فى حبائلها ، وتستعمل اصطلاحات الحب والجنس بكثرة فى تفسيرها للأشياء العادية التى تحدث بينها وبين الرجال ، الا أنها غالبا باردة من ناحية الجنس ولا يمكنها ممارسته طبيعيا وباشباع ، وقد تمثل لشريكها أنها اكتفت وسعدت معه بالجنس · وهذا يفسر كيف أنها كثيرة الزواج والطلاق · (أنظر قصة الغول فى هذا الكتاب)

على الرغم من اظهارها دفء وسحر شخصيتها الا أن البعض يراها على حقيقتها باردة وغير صادقة فى نواياها وعواطفها ، أنانية ، عديمة الاكتراث بالآخرين ، ملحة عندما تطلب ، لا تعتمد على نفسها ، يائسة مفتقدة الثقة فى نفسها · وفى كثير من الأحيان تلجأ الى التهديد بالانتحار لتصل الى غرضها وما تريد ·

فى حالات الشدة ، ولكى تهرب منها ومن المسئولية ، كثيرا ما تتغير وتتبدل فى معاملاتها ، كأنها تحولت الى شخصية أخرى · وأحيانا تصاب بأعراض نفسية كالعمى أو البكم أو الشلل الجزئى ·

٤ ــ يا له من مختال كالطاووس ، نافشا ريشه ، معتزا بأهميته الشخصية ، وقدراته الفائقة ، يا أرض احفظى ما عليك · يزيد ويعيد فى وصف مواهبه وانجازاته الفائقة · لا يتكلم الا عن مشاغله ومشاكله كأنه لا يوجد غيره فى هذا العالم ·

مشغول البال دائما بمشاريعه وأحلامه وأوهامه التى

لا حدود لها ، وبذكائه وعبقريته • لذلك فهو يطالب ويصر على المطالبة بدوام الاهتمام به والتركيز عليه بالمديح والاعجاب • خيلاء كاذبة •

اذا نقد أو جرح ، يقابل ذلك اما بالبرود وعدم اللامبالاة أو الغضب الشديد تحت وطأة الشعور بالانحطاط والذل والعار الذى لحقه • وقد يمتد به الانفعال الى السفه والوقاحة فى الرد على الناقد أو المحرج •

ولا يقابل المعروف بالمعروف عادة ، ويحب استغلال الآخرين لمصلحته الشخصية ، مع تجاهل مصالحهم ، بل ويخفض من قيمتهم • أحيانا يؤله ويعظم بعض الأشخاص فى نفسه ثم لا يلبث أن يعض اليد التى أحسنت اليه •

٥ ــ لا يستطيع البقاء والاستمرار فى عمل ويغير عمله بين يوم وآخر ، كثير التغيب عن عمله لأعذار واهية • لذلك هو شبه معطل دائما لأنه لم يعد يجد عملا يقبله لضعف تاريخه العملى •

وهو أب غير ملتفت لاولاده ، يعاملهم بخشونة ، وهم دائما عند الجيران يتلمسون الاكل والحنان • وينفق مصروف البيت على ملذاته خارج البيت وليس على أسرته • كريم مع الغرباء بخيل على أهله • سهل الانحراف فى المجتمع ، يغش ، ويرتشى ، ويختلس ، ويسرق ، ويبيع ويوزع المخدرات ، يقترف ويحترف الدعارة ، مما قد يعرضه لتكرار القبض عليه والسجن •

لا يمكنه اقامة علاقة مستمرة حميمة مع الزوجة ، مما يؤدى به الى تعدد الزواج والطلاق •

كثير الشجار بسبب سرعة التهيج ، كثير الاعتداء علـى الغير لأقل سبب أو بدون مبرر الا سرعة تهيجه العصبى وعدم القدرة على كبح جماح غضبه الزائد عن الحد ·

لا يستطيع مقابلة التزاماته المالية ، مما يؤدى به الى الافلاس اذا اشتغل فى التجارة ·

كثيرا ما ينتهى به الحال بالتجوال من مكان الى آخـر بدون هدف ، أو هربا من دائنيه أو الأحكام التى عليـه · ويباهى بأنه بعيد عن يد الديانة والقانون · ولـكن عادة الى حين ·

كثير الكذب ، يتعود عليه حتى لا يأتى الصـدق عـلى لسانه الا عرضا وغير مقصود ·

وبديهي أنه لا يستفيد من تجاربه وأخطائه المتكررة · يخطىء ويندم ويعتذر ليعود فيكرر نفس الخطأ وكأنه نسيه تماما · ومع أنه ذكى الا أنه قطعا مصاب بغباء اجتماعى ·

٦ ــ هو محدود القدرة على اظهار عواطف دافئة رقيقة ، ولذلك فهو متحفظ ، جاد ، رزين ، ورسمى فى تعامله مع الغير ·

يحب الكمال ، مشغول بالتفاصيل الدقيقة والتافهة · يقدس القوانين ، والأوامر ، والقواعد ، والنظم، والجداول، والقـوائم ·

يصر على أن الغير يجب أن يتبعوا طرقه فى أداء الأعمال والتصرفات · ويتطلب الطاعة العمياء له شديد الولاء لعمله والواجب ، الى حد أنه لا يعرف فى الشـغل أى هـوادة أو

مجاملة • هو ادارى (ادارجى) حازم جدا يتمنى أصحاب الأعمال أن يضمونه الى موظفيهم •

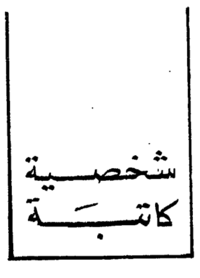
ومع ذلك فهو موسوس ، يتجنب لذلك اتخاذ القرارات الهامة والفاصلة أو يؤخر اتخاذ القرارات فيها ويسوفها مخافة أن يرتكب خطأ • فمثلا ، يقرأ المعاملة الواحدة مرات قبل أن يبت فيها • يعيد التأكد من اطفاء النور ، وغلق الأبواب ، وقفل صنبور الغاز ، قبل أن يتوجه الى النوم • محب للقيام بطقوس كل يوم ، القيام من النوم ، ثم لعب الرياضة ، ثم شرب الشاى ، ثم لبس هدومه ، ثم قراءة صحيفته المفضلة قبل الخروج الى عمله • هذه الطقوس لا يمكن تغيرها والا تعكنن بقية يومه وعكنن لذلك على من يتعامل معهم • يصبح نكدى وينكد على غيره •

انه مهتم بصحته ، يقرأ باستمرار طبيبك الخاص أو ما أشبه من المجلات ، ويذهب الى الأطباء لأقل الأعراض ومعه كشوفا بالاعراض التى أصابته مع تواريخها •

٧ ـ متغير المزاج بين منطلق ، وصديق ، ودافىء ، وخدوم ، ولطيف ، وبين منكسر ، عديم الاهتمام والاكتراث • أحيانا يكون مكتئبا ، معكنن المزاج ، يائسا ، فاقد الهمة ، فاقد الاهتمام بما يجرى حوله ، كثير الضجر والشكوى • وأحيانا كثير المرح ، سعيد ، خلاب فى معاملاته ، حلو الحديث شيقة • شخصية متقلبة ، يوما مقبلا على الدنيا ، ويوما معرضا عنها ، وهكذا تستمر حياته فى حلقات مفرغة من الاقبال والاعراض •

وبعد أيها القارىء ، وقد أوضحت لك معالم بعض الشخصيات المضطربة ، ولا أقول مريضة وانما غير طبيعية

أو مألوفة ، فهل تستطيع أن توصف محددا شخصية مضطربة عرفتها أو تعرفها وتقاسى منها ، تشبه الى حـد كبير بعض نماذج الشخصيات السبع التى اوردتها هنا ؟



شخصية كاتبة

كتبت فى الماضى البعيد لترضى غرورا وتشبع ميلا لا يلينى الى الكتابة • كانت اذا انفعلت بشيىء عن لها فى حياتها المبكرة تخطط فى مفكرتها آبياتا من الشعر المرسل • ومن العجيب أن تحول الشعر الى نثر لما غرقت فى بحور حبها العذرى •

أطلعت سامح على مفكرتها ليعرف كم وكيف تحبه • لم تذكر اسمه فى تسلسل الأحداث بينهما ولا مرة واحدة • ولكنها بكلمات رقيقة رسمت صورته فى كل صفحة ، وبأسلوب جميل أبانت شخصيته فى آكثر من يومية • ليلتها كتبت فى مفكرتها :

رفض أن يمد لى يده لينتشلنى من بحر حبه • وكل ما قاله لى كلاما سخيفا باهتا مثل ان الحب بالروح وليس بالجسد • وسأكون فى يوم كاتبة كبيرة • يا لحبى الوليد وئد بين كبريائه وهوانى •

هكذا كان انشاؤها •

منذ تلك الليلة أهملت مفكرتها ، واهتمت بدروسـها والمقررات الى أن تخرجت فى الجامعة ٠

تقابلا صدفة بعد بضع سنوات من تخرجهما ٠ تبينت أن عملها وزوجها ووحيدها رجائى لم يسلوها حبه فسعت اليه وأمضيا معا أوقاتا أحلى من العسل ٠ وقتها كانت زوجتـه « غضبانة » عند أمها الى أن جاءت له بنيللى فتصالحا ٠ قال لها ساعة الفراق ولم تتوقع يوما حدوثها ٠

ــ أمازلت تكتبين ، مذكرات ؟

أجابته متضايقة وهى تصلح من وضع فستان ضيق على جسم ممتلىء بدا فى المرآة قصيرا بدون حذاء ٠

ــ أما الكتابة فقد فرغنا منها ٠٠ كبرنا عليها ٠

ــ خسارة ، اعتقدت انك ستصبحين يوما كاتبة عظيمة ٠

كاتبة ! ها هو مرة ثانية يسخر منها ٠ يظنها لعبة ٠ دمية بلا قلب ٠ لابد أن زوجته أجمل منها ٠ قالت تجـارية سخريته ٠

ــ طب نفسا ٠ ازدد غرورا ٠ اسـتخف بعـواطفى ما شئت فما عاد شيىء يهمنى ٠ قد يدفعنى الملل مع الحرمان يوما الى الكتابة ، ولكنك لن تطلع على ما سأكتبه ٠٠ لا أنت ولا غيرك ٠ لن أكتب للنشر ، فقد سئم الناس كلاما عن الحب تقوله امرأة ٠

هدأت بعد أن قالت ما قالته ٠ طلبت منه أن يقبلها قبلة الوداع ، هكذا تفعل المتحضرات ٠

قال ولم تكد شفاهما تلتقى لتفترق :

ـ لا تفكرى فى النشر الآن ، ولكن أكتبى ، فان أجمل ما كتبه الكتاب لم يقرؤه أحد ·

★★★

تمنى لها زوجها الرضا حتى رضيت وطابت عيشتها معه · كان ميسور الحال ، ناجحا فى عمله ، أحبها فى هدوء على طريقته فأخلصت له الود الى آخر أيامهما معا · حجا مرة واعتمرا مرتين · أجهد نفسه فى آخر أيامه فى العمل · نصحه الأطباء بالامتناع عن التدخين والاعتدال فى معيشته فلم ينتصح كأنه كان يتوقع الموت أو يتعجله ·

تركها فى سن اذا تزوجت ما لامها أحد، ولكنها لم تتزوج ولم تأسف على ترملها · جاء حزنها عليه متجملا هادئا كما كانت حياتهما معا · ولم تتغير حياتها من بعده · دارت حول عملها فى احدى الوزارات الهامة ، الأصدقاء والزملاء والمعارف ، جمعية المرأة العاملة ، النادى ، ورجائى وعروسه سناء ·

تقرأ اذا كانت وحدها مع الليل والأرق · كانت أحيانا تجرب يدها فى الكتابة فيعوزها الموضوع فتنزهق وترمى القلم ·

الواقع أنها لم تهمل الكتابة تماما · كان عملها كمدير عام يتطلب منها كتابة مذكرات لترفع الى السادة وكلاء الوزارة · وكان ينتابها شعور خفى من الفرح والزهو اذا عقب أحد السادة الوكلاء على مذكرة بقوله :

ـ أسلوب جميل يا مدام ·

عادة كانت تبدأ المذكرة بديباجة حسنة · لا تنسى بعدما تدخل فى الموضوع وضع لمسة جمال هنا وهناك تخفف بها من

جفاف السرد الميرى . وتنهى المذكرة بنهاية رصينة الرصد ذات عبارات رنانة مؤثرة .

واظبت على التردد على النادى فى آيام العطلات كلما سنحت لها الفرص . تجلس فى مكانها المفضل قريبا من حمام السباحة فى ظل الشجر . يستهويها مراقبة الكبار والصغار، بعضهم فى ملابس عرضية زاهية الألوان ، والبعض فى لبس الاستحمام تكشف عن أجسام نحاسية لامعة . الكل موفورو الصحة ، فرحون مرحون ، خالون البال .

هى أيضا فى صحة جيدة ، سعيدة قانعة بحياتها ، خالية البال . نظرت الى فستانها لتتأكد من آنها لابسة الحداد. وجدته مطرزا بالبرودريه ، وبنصفكم .. لا يهم .

كان قرارها منذ وفاة زوجها آن تعيش يوما بيوم . لا أمس تأسف عليه ولا غد يهم . يكفيها شعورها بالاكتفاء ، فكل شيىء موجود ومتوفر . كل شيىء ؟

لم يقلقها مشاركتها ما وسعتها المشاركة فى مختلف الأنشطة الوظيفية والاجتماعية والعائلية دونما عائد كبير لها . لم يمضها آنها تعطى آكثر بكثير مما تأخذ . ذلك ما تعلمته من تجربة سابقة .

★★★

فى صباح يوم كانت فى النادى تقرآ جريدتها المفضلة حينما وقع نظرها فوق حافة الجريدة على طفل مقبل نحوها . كان قد تعلم المشى حديثا فلم تتمالك آن نحت الجريدة جانبا على المنضدة وأشارت اليه :

ـ تعال يا حبيبى •

ولم تكن البراءة والليونة فى حاجة الى دعوة • واصل الطفل اندفاعه بخطوات عراض يدب بها يمينا وشمالا ، دافعا بصدره الى الامام ثم الى الخلف ليحافظ على توازنه الى أن اصطدم بركبتيها ساندا كفيه الصغيرتين على فخذيها • رفع اليها وجها باسما كالصبح •

« تيتة » •

تأملت العينين الباسمتين بسوادهما الكبيرين • مدت أصابعها تتحسس الخدين كالخوختين • ولم تكد تفعل حتى سمعت أم الطفل فى عمر سناء تنادى من وراء منضدتها القريبة على رجل يقترب من ورائها •

ـ هات سامح يا أبى حتى لا يضايق المدام •

وصل الجد الى حيث كان حفيده وانحنى عليه ثم حمله الى صدره • نظر الى المدام واعتذر عن مضايقة حفيده لها •

ـ ولد شقى وعفريت من يومه ، لا يقر له قرار •

ـ كل الأطفال هكذا ، أنسيت ؟

ـ أرجو ألا يكون ضايقك ، عن اذنك •

ـ بل سعدت بلقائه • أرى أن سامح يشبه جده تماما •

ـ الكل يقول هذا •

ـ ستأتى سناء ، زوجة رجائى ، بواحد مثله قريبا انشاء الله •

ـ كدا ، ألف مبروك • عن اذنك •

وابتعد الجد بحمله الغالى الى حيث تجلس ابنته •

آه يا سامح ·· أعدت فى لحظة قصيرة كل ما كان ·

عرفته من أول نظرة · كيف غيرت منه الأيام ؟ ولكنه مازال كعهدها به وسيما آنيقا فى بدلته الناصعة البياض وقميصه الكحلى المفتوح عند الرقبة · لولا آن الشيب وخط رأسه وشاربه المقصوص بعناية كما كان دائما · رآت فى عينيه مسحة من حزن ، واستسلام لقدر · ولاحظت فضفاضة البدلة عليه وخاصة البنطلون ·

هل عرفها ؟ نعم ، فلم تغير منها الأيام الا قليلا · صحيح، زجاج نظارتها سمك وغمق قليلا ، وهى سمنت قليلا ، الا أنه لا النظارة أو السمنة تغير من شكل انسان وهيآته · لم يبد عليه انه عرفها · ذلك لانهما كانا فى مكان عام فلم يشأ أن يحرجها · تلك هى خصلته وطبيعته ·

صحت على دنيا فيها هو · وباتت تحلم بعودته اليها · عاد للزمان أمسه ويومه وغده · شعرت بنشوة الشباب تجرى فى عروقها · وبأعراض كأعراض المراهقة ·· المراهقة الثانية ·· قرأت عنها فى المجلات والكتب · كثيرات وقعن فى الحب وتزوجن وهن فى سنها وآكبر · انها لم تقع فى الحب ، ولكن حبها الأول والأخير عاد اليها · حبها الوحيد ·

انها الآن حرة تفعل ما تريد · ستسعى اليه كما سعت فى الماضى ، وستظفر به ·

أطالت النظر فى مرايا بيتها · تتلفت يمينا وشمالا تتفحص معالم وجهها ·

فمها ، تحدده بالروج ·

حاجباها ، تقوسهما بالقلم ·

جفونها ، تظللهما بالريميل .

رموشها ، تكثفها وتدببها بالماسكارا .

بشرتها ، تدهنها بكريم شد الجلد حتى تبدو نضرة لينة

أظافرها ، تطيلها وتطليها بالمانيكير الوردى .

شعرها ، يجب ألا يكون فيه شعرة بيضاء واحدة . ستصبغه باللون الاسود الفاحم ، أو الغرابى ، أو البنى الغامق . بنى غامق أحسن ، سيتفق ولون بشرتها . وستذهب الى الكوافير مرة كل أسبوع على الأقل .

ستتبع ريجيما ، ليس قاسيا ، لينقص وزنها قليلا ويلتف قوامها .

فساتينها والاكسسوارات تشتريها من شارع الشواربى وقصر النيل .

وستخلع الحداد عند اتمام السنة .

ستضع على فمها ووجهها ابتسامة عريضة دائمة .. هكذا .

ستصبح أجمل وأشيك ، وأعقل ، بكثير من فتاة الأمس . وكل ذلك من أجله .

ستكون وسيلتها اليه نيللى . تتعرف بها بلا عمد أو الحاح ، ذلك ما أيسره فى النادى . وبجانب نيللى جلست ، المنضدة ملاصقة للمنضدة ، المرة تلو المرة الى أن تم التعارف والتآلف بينهما فى يسر وبلا كلفة . وكان أن أمضت مع نيللى وسامح الصغير أوقاتا جميلة تخللتها أحلام باللقاء المرتقب .

ولكنها شاءت ألا ترفع الكلفة بينها وبين نيللى تماما مخافة أن تشك نيللى فى نواياها . حرصت منذ الأول على أن

تبقى نفسها على بعد ذراع منها . تبتعد اذا كانت نيللى فى صحبة أحد ، أو هى مع رجائى وسناء . فى الخريف يقل اللقاء وينقطع فى الشتاء ، ويتجدد فى الربيع ويكثر فى الصيف .

مرت شهور وشهور وسنوات ولم يتحقق اللقاء . وفى النهاية تراخت علاقتها بنيللى . اذا تقابلا تقرؤ كل واحدة الأخرى السلام ثم تجلس فى مكان لا يجمعهما .

فكرت ومازال عندها آمل فى اللقاء لماذا لا تشغل نفسها بالكتابة ، ستعجبه حينما تطلعه عليها يوما . يكفى مؤقتا أنهما يتقابلان على الورق .

فى الليل ، فى ساعات الأرق ، كتبت وكتبت وملأت صفحات وصفحات عن كل شيىء عن لها . عن الوجد، الغرام، اللوعة ، الحرمان ، التاريخ ، الربيع ، الخريف ، اليأس والأمل . لم يعزها الأسلوب الجيد الرشيق ، ولا الفهم العميق للمضمون ، ولا الخبرة بالحياة .

لكن العواطف الفوارة والأحاسيس الجياشة مهما استمرت لابد لها أن تهدأ أو تخمد . تراجع الدافع الملح والشوق المتأجج الى سكون ورضاء جميلين . يكفى آنه موجود فى الدنيا ، وانها تراه فى مرآة عقلها كلما أرادت ، تماما كما رآته منذ خمس سنوات فى مرة عابرة عند حمام السباحة . وكان لابد من التعويض عن الحرمان والوحدة ، بالعمل فى الوزارة صباحا والكتابة فى الليل .

من التعويض ما جعلها تطلب ترقيتها الى درجة وكيل وزارة . كانت قد رشحت للدرجة المرموقة من ثلاث سنوات

ولم تفز بها . ولم يطل انتظارها ، منحت الدرجة بصفة شخصية . قال لها السيد الوزير وهو يزف لها البشرى :

ــ مبروك يا مدام . الواقع أن الوزارة فى حاجة الى مواهبك .

قالت وهى تطالع الخبر السار فى الصحف والمجلات :

« لابد وأنه علم » .

ذهبت فى أول يوم عطلة بعد ترقيتها الى النادى مصطحبة معها حفيدها عمر وعليها هالة وكيل الوزارة . كانت نيللى مع سامح الصغير هناك فانضمت هى وعمر اليهما . ولم لا .. فالمعرفة قديمة .. والود مازال موجودا .. والانشغال برعاية صبيين صغيرين واحد . وازدادت مطالب الصبيين للآيس كريم والسفن أب والقلع واللبس والنزول الى الماء .

فى غمرة الطلبات المتلاحقة ونشوة الصراخ والصياح والقفز والنط وجدت نفسها تسأل نيللى :

ــ ألا يأتى جد سامح الى النادى ؟

ــ لم يدخل فى حياته أى نادى .. تصورى !

ــ ولكنه كان هنا مرة ، عندما طلبت منه آن يأخذ سامح منى حتى لا يضايقنى كما اعتقد .

ــ من ؟ تقصدين أبى . مات رحمه الله منذ خمس سنوات تقريبا .

ــ البقية فى حياتك . متأسفة .

ــ لا ، ولا حاجة .. مرسى يا طنط .

ران على الاثنين هدوء بددته نيللى بسؤالها :

ـ هل عرفت بابا يا طنط ؟

ـ لا ، أبدا • لم أره الا تلك المرة •

ـ لم يمهله المرض بعدها طويلا •

شعرت طــول ذلك النهار بخدر ، وفى الليــل بفــراغ ولا أمل • وظل هذا حالها أسبوعا • تبــدد الخيال • تبخــر الحلم • تلاشى الأمل • خمدت الرغبة • اعتقدت انه موجود، في مكان ما ، ثم اتضح انه لم يكن موجودا فى أى مكان • خدعها كعادته • تخلى عنها • وقع نظرها على المفكرات عــلى المكتب ، لمن ستكتب بعده ؟ لن تكتب بعــد اليــوم • خداع هذه الدنيا فى خداع •

أرادت هى الأخرى أن تتوقف • قررت أن تحيل نفسها الى التقاعد قبل السن القانونية • القانون يسمح ويعطيها هذا الحق • كلما قلبت الفكرة فى رأسها استعذبتها ، ماذا أفادت من الخدمة فى الحكومة ؟ ما أجمل أن تصــبح عــلى المعاش بارادتها ، تخرج من الحكومة قبل أن يخرجوها •

فى مكتبها الفاخر فى الوزارة شرعت فى كتابة الطلب • يجب أن تضمن الطلب بعض توصيات هامة ، فوكيل الوزارة له أن يوصى كما له أن يطلب • أوصت بمزيد من الاهتمام بالمرأة العاملة • تذكرت حينما تخطوها فى الترقية الى درجة وكيل وزارة وأحست بغصة فى حلقها • لم يكن هناك سبب لتخطيها ســوى انهــا امرأة • ربما اذا لم تطالب بالدرجة ما كانت الى الآن قد فازت بها • على كل ، تلك أشــياء قد مضت ولا داعى الآن للأسف • كتبت :

يجب ألا تؤثر النظرة التقليدية للمرأة فى مســتقبلها الوظيفى فتقف حائلا دن بلوغها أعلى مستوى ••

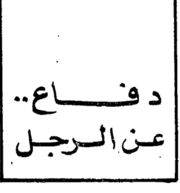
شطبت الجملة كلها ، فمثل هذا الأسلوب العــدائى يثير عناد الرجال • وكتبت بدلهــا ، يجب ألا يقف التزام المرأة العاملة بواجباتها الأسرية حائلا دون نقلدها الوظائف الهامة • ثم انهت الطلب كالمعتاد بذكر أطيب وأرق الأمنيات للسيد الوزير ، والسيدين نائبيه ، والزملاء الأعزاء •

أخذت الطلب معها لتراجعه فى البيت • يجب أن يكون طلب احالتها الى التقاعد قبل السن القانونى بأسلوب يرقى الى خطورة المناسبة •

فى الليل ، فى ســاعات الأرق ، راجعت الطلب مرارا وتكرارا وأعادت صياغته • ولما انتهت من وضع اللمســات الأخيرة وجدت أنه من أجمل ما كتبت • حقا ، كان يجب أن تكون كاتبة •

فى الصباح بعد أن جلست الى مكتبها الفخم فى الوزارة وأخرجت من حقيبة أوراقها الطلب قرأته للمرة الأخيرة قبل أن تسلمه للسكرتير ليطبعه على الآلة الكاتبة • ولكنهــا بدلا من اعطائه للسكرتير الواقف فى خشوع أمامها عدلت عن الفكرة •

ومزقت الطلب •



آحار اذا دافعت عنه بين قوته وضعفه ، ذكائه وغبائه، شجاعته وجبنه ، اقدامه وتردده ، تحفظه واستهتاره ، مثاليته وواقعيته ، تقيده وتحرره ، جده وهزله ، كرمه وحرصه ، اخلاصه وغدره ، ولائه وجحوده ، الى آخر هذه المتناقضات ولا أنتهى ·

هو ، بحق ، سيد المخلوقات جميعا بما فيهم المرأة · ذكاء ، وقدرة ، وقوة دفعته الى تحمل العبء وحده ، وكان فى هذا ظالما لنفسه ولشريكة حياته ، المرأة · هذا الظلم الذى وقع على الرجل ، والمرأة بالتبعية ، سببه هورمون الذكورة ، التستوستيرون ، الذى يجرى فى عروقه فجعله خشن الطباع ، قوى البناء ، صلب الارادة ، ثائرا ، مخاربا، عنيدا · باعد هورمون الذكورة بينه وبين المرأة مع أن لهما نفس الخواص الوظيفية (الفسيولوجية) والتكوينية ، اذا استثنينا تأثير الهورمونات الجنسية على الرجل والمرأة ·

عندما ولد فرح أبواه به فرحا عظيما · تمنيا طول فترة الحمل أن يجيىء ولدا · بعد ولادته هرع أبوه الشاب ليزف

البشرى فخورا متباهيا الى الأقارب والأصدقاء والزملاء والمعارف ، بل ومن ليسوا معارف ! هؤلاء هللوا فرحين مهللين مكبرين لأن الرجل قد آتى بالرجل الصغير ، وما كانوا ليهتموا كثيرا لو آن الأب جاء بالبنت • وربما ما كان أبوه ليقول لأحد لو كان قد أتى بالبنت • وكان يمكن طبعا آن يأتى الولد بنتا اذا لم تفرز الغدة فوق الكلية هورمون التستوستيرون والجنين فى الاسبوع التاسع فى بطن أمه فتتغير نوع الجنين من جنين له خصائص الذكر والأنثى الى جنين ذكر » راجع كتاب الطب النفسى المبسط ، الجزء الثانى ، فى دفاع عن المرأة) •

ولا يعتقد الأبوان ، والغير ، آن البنت خاصة فى هذه الأيام ومستقبلا قد يكون مصيرها آفضل من الولد •

كان العرب فى الجاهلية يؤدون بناتهم وهن آطفال ، يدفنوهن وهن أحياء ، خشية آن يجلبن عليهم العار عندما يكبرن • فعل ذلك سيدنا عمر بن الخطاب • وكل ما بقى فى العرب عموما من تلك العادة البدائية فى هذه الأيام هو أننا مازلنا ، فقط ، نفضل الولد عن البنت •

فى الجيل الماضى ، وفى هذا الجيل فى البيئات الريفية ، كانت الامهات تغنى للرضع الذكور وهم على حجورهن لينيموهم الأغنية الشعبية المعروفة :

هوه لما قالوا دا ولد

قلت أنا دهرى انسند

هوه لما قالو دا ولد

انشد حيلى وانسند

هوه وجابولى البيض مقشر

وعليه سمن البلد

هوه لما قالوا دى بنيه

انهد ركن البيت عليه

هوه وجابولى البيض بقشره

ما عليه حتى الميه

هذه هى قيمة الولد عند أمه ٠

أما عند الأب ، فى بعض المجتمعات ، فيكنى الرجل بابنه فينادى بأبو محمد أو عمر، وليس عادة بأبو زينب أو رقية ٠

ويكبر الولد معززا مكرما بحكم أنه ولد ٠ ويذهب الى المدرسة فيعرف أن المجتمع يفضل الولد عن البنت ٠ فاذا وصل الى سن الحادية عشر وانضم الى « الشلة » حيث الكل أولاد ، سيعرف الفرق بين البنت والولد٠ سيعرف ما تصادفه البنت من موانع اجتماعية لا يتعرض هو لها ، وينتابه شعور بالفخر لأنه من جنس أبيه ، المحظوظ والمفضل ، ويحمد الله على أنه ليس من الجنس الآخر ٠

سيعرف الشاب فى سن المراهقة أنه قوى شجاع وذكى ، كآلهة الاغريق والرومان أو نجوم السينما ، وهكذا يدخل الشاب فى زمرة الرجال ويصبح رجلا ٠

فاذا أصبح شابا نافعا أدخل فى رأسه أنه مثالى ذى مبادىء ومثل عليا ، وأنه مفضل عن الفتاة الخجولة الضعيفة التى لا تحمل المثل العليا ولم تخلق الا للزواج واسعاد الرجل وانجاب الأطفال ، والتى تبقى حبيسة بيتها اذا لم تكمل دراستها ولم تعمل ٠ وانها ، بخلافه ، ليس لها حرية الحركة والارادة الا اذا كانت بصحبة أحد من أهلها ٠

وعندما يكمـل الشاب تعليمه على أى مستوى ، تكون مكافـأته على صبره على التعلم وطول الدراسة ، حصوله على عمل يدر عليه دخلا ثابتا كل شهر .. ثم عروسة .

بديهى أن البنت ، خاصة فى بيئتنا المصرية ، قد تحررت تحررا ملحوظا ، الا أنه مازال هناك فرق شاسع بين البنت والولد . عـلى أننـا هنـا ندافع عن الرجل وليس المرأة ، وبالتالى لا نعمد الى المقارنة بينهما .

الرجل فى حياته العملية

يعرف الرجل المسئولية كاملة اذا عمل فى حرفة أو مهنة ويصبح رب أسرة ومسئول عنها . ولكنه مازال حديث العهد بالحياة العملية ومشاغلها ومشاكلها ، عادة يكون مثاليا كما تعلم فى البيت والمـدرسة ، مثـاليا فى دنيـا فيها المثاليـة والواقعية ، الفضـائل والرذائل ، جنبا الى جنب فى جـذب وشد . عليه اذا أراد أن يعيش وتبقى رأسه طافية على السطح أن يختار بين طريقين لا ثالث لهما ، طريق المثالية والفضائل أو طريق الواقعية بما يكتنفه عادة من رذائل . سيجد بين من يتعامل معهم الشريف والوضيع ، الجاد والهازل ، المتدين والفاجر ، الصادق الوعد والكاذب الحانث ، المستقل المعتمد على نفسه والانتهازى ، وبحار فى أى الطريقين يسير ، والى أى الفريقين ينضم . سيجد أن مجتمع الواقع الذى يعيشه غير الذى تعلمه من المدرسة والكتب .

وتتناوله الظروف فتختبره أشد الاختبار .وقد تزين له الظروف اذا قست عليه الشر على أنه خير ، والخير على أنه شر ، وكل ما يفيد وينفعه خير وان كان شرا ، وكل ما يضره

ولا ينفعه شر وان كان خيرا . وقد ينساق الى طريق الشر الى أن يعتاد عليه ، وقد يمشى فى طريق الخير فيعتاد عليه . يساعده فى كل حال ضميره الذى يتكون فيه وهو طفل صغير بفعل التربية ، فيجعله يرتاح الى الخير أو الشر .

سيجد الرجل فى المجتمع المنحل أناسا وزملاء آشرافا ، جادين ، صالحين ، لا يتشككون ، ولا يتزعزعون ، مؤمنين بأنفسهم وبربهم . سيكبر الرجل فى عين نفسه عندما يعلم بوجود أناس أفاضل فى المجتمع المنحل . وقد يصغر فى عين نفسه اذا كان قد انضم فعلا الى المنحلين ، ثم يلحقه «التبرير» فيقول انه أحسن من الأفاضل لأنه واقعى وفاهم لمجتمعه أكثر منهم . وقد يتهمهم بأنهم « مرضى » بالضمير . انه فقط « مساير » لمجتمعه ، لأنه ليس فى الامكان أبدع من هذا الحال .

من خصائص المجتمع المنحل آنه يساعد نفسه من داخل نفسه على الاستمرار فى الانحلال ، ويروج للانحلال . يقيم الشائعات الهدامة المغرضة وينشرها ليثبت دعواه :

« الريس ، نفسه ، مرتشى . والوزير والمستشار والقاضى كذلك . كل واحد فى البلد يقول يلا نفسى . البلد فوضى والقانون معطل .. سايبه .. شعارها الى تغلب به العب به .

« حكم على أحد الأثرياء بالسجن لمدة ثلاثة أشهر ، أتعرف أين قضى العقوبة ؟ لا ، آين ؟ فى فندق هيلتون رمسيس » !

فاذا كان الرجل ، نتيجة للتنشئة ، من ضعاف النفوس وما أكثرهم فى المجتمعات المنحلة ، صدق الشائعات الهدامة

علي أنها حقيقة واقعة • واذا كان الرجل ذا نفس عالية نظيفة وضمير سليم بحكم التنشئة والتربية فسيرفض تصديق الشائعات الهدامة ، ولسان حاله يقول :

« مالى وللفساد والتسيب • أؤدى واجبى المفروض على والله يفعل ما يشاء • لا يذهب المعروف بين الله والناس» •

المعروف عن المجتمعات الفاضلة ، وهى راقية متقدمة ، أنها متماسكة كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وتقوى نفسها من داخل نفسها • اذا ظهر فيها منحل او منحرف ظهر فيها العضو المنحل أو المنحرف واضحا فيتنبه سائر الأعضاء له فى الحال ويعملون غالبا على اصلاحه واعادته الى حظيرتهم •

وتحضرنى هنا التعاليم الاسلامية العظيمة التى سادت فى صدر الاسلام ، والتى يحلو للبعض تناسيها •

لذلك تستمر المجتمعات السليمة متماسكة ، وتزداد مع الوقت قوة وارتقاء ، بعكس المجتمعات المنحلة تزداد ضعفا وانحلالا •

عادة يتردد الرجل بين المثالية والواقعية العملية فى أول عهده بالحياة العملية • فاذا كان صالحا بطبيعته قال الحمد لله على أن أهلى ربونى على حب الخير • واذا كان منحرفا أساسا ، لعن من رباه وقال لنفسه لماذا لم يقل لى ان الحياة شريرة قاسية ؟

على أن المقرر لسلوك طريق الخير أو الشر هى مدرسة الحياة ، فيها يقع الاختيار على نوع المبادىء التى سيتبناها الرجل •• أما مبادىء بناءة أو هدامة •• أو بين بين •• أى مرنة •

علاقة الرجل بالمرأة :

تتوقف على عاملين :

هورمون التستوستيرون ، خاصة فى المراحل الأولى من الحياة • ويلاحظ أننا جميعــا لسنا رجالا مائة فى المائة ، ولا نساء مائة فى المائة ، وانما كلنا نقع على أبعاد من طرفى خط أقصى طرفيه ذكورة من ناحية وأنوثة من الطرف الآخر • كل النساء فيهن كميات متفاوتة من الذكورة ، وكل الرجال فيهم كميات متفاوتة من الأنوثة (راجع الجزء الثــانى من كتاب الطب النفسى المبسط فى دفاع عن المرأة ، والجزء الأول فى باب الجنس) •

ألهب هورمون الذكورة خيال الرجل نحو المرأة فصورها أجمل تصوير فى شعره وكتــاباته وتصــويره وموســيقاه وتماثيله • دفعه الهورمون السحرى الى المرأة دفعا مغناطيسيا. فهى الجمال والرقة والحنان والرحمة والملجأ • « عروسة » يفوز بها فى فرح كبير يكون أثناءه سكرانا من الســعادة • ثم يعيش ع عروسه راعيا ، قواما ، متفانيا فى خدمتهــا ، مضحيا بنفسه اذا لزم الأمر من أجلها • يشقى كثيرا ليسعدها الى أن تأتى العروسة بالعيال ويصبح رب أسرة • ويتفانى أكثر فى عمله ، ويجهد نفسه فيه ما وسعه الاجهــاد ليوفر لأسرته عيشة راضية ، يتحمل فى سبيل اســعادها الأمرين ولا يشتكى أو يتذمر • انه الرجل •

وتتوقف علاقة الرجل بالمرأة ، خاصة فى المراحل الاخيرة من الحياة ، على الرقى العقلى (الذكاء) والضمير •

قال كارل يونج :

« فى النصف الأول من الحياة يتحد الرجل والمرأة لينجبا الأطفال ، وخلال النصف الأخير لينجبا المعنويات والافكار» •

أبأس ما يمر فى خاطر الرجل من أفكار ، بعد فوات الأوان ، هو أن يتنبه ليجد آنه أجهد وأفنى نفسه لصالح الزوجة والأولاد ، ليس لصالحه فى شيىء اللهم الا المظاهر • ما كان أغناه عن هذا العناء لولا تشوقه الجنونى للمرأة • بحسد أترابه غير المتزوجين • مـاذا فى المرأة وهى على أى حال مثله ، جسد وروح ؟ لولا الذكورة التى تجرى فى عروقه لكانت المرأة بالنسبة له كالماء ، لا طعم ولا رائحة •

كل ما أرادته المرأة منه ، يسترسل الرجل فى تأملاته الحزينة ، أن تأتى بواسطته بالأبناء فتصبح لها آسرة ، تعمر بها الكون • الرجل وسيلة •• والمـرأة الأصـل والغاية • ماشاء الله ، تعمر الدنيا بسبب الرجـل دون آن يكـون له أساس أو مكان فى هذا العمران الا السبب •• وبعد ذلك الجهد والعرق• يخرج منالمولد بلا حمص •• انه الأب فقط•

كان الهدف كما صوره له خيـاله آيام الشـباب المرأة فقط ، يسكن اليها لتسعده • ثم جاء العيال ثمرة الحب ، مجرد ثمرة • ثم يتبين فى النهاية للرجل آن الهـدف الأول والأخير من الزواج هو المجيىء بالأطفال، وما الحب والزواج الا مسرحية ، سيناريو ، مثلت لصالح المرآة ، ويدفع الرجل ثمن « التذكرة » ليدخل ويلهو ثم يخرج كما دخل • يقول علماء الأنثروبولوجى (علم الأجناس) :

« المرأة تغرى الرجل لتحمل منه فتآتى بالولد ، والرجل يغرى المرأة ليشبع شهوته فقط » •

الرجل وصحته :

حمل الذكور فى جميع أنواع الحيوانات فى أجسامهم عوامل البناء والهدم معا ، وذلك بسبب هورمون الذكورة فى أجسامهم • خلق فيهم الهورمون نزعة عدوانية (ميل الى التعدى على الآخرين) وأحيانا عدوانية ضد آنفسهم اذا لم يستطيعوا توجيه عدوانيتهم ضد الآخرين • الغرض الحيوى من هذه العدوانية هى المحافظة على النفس والنوع (الأسرة)•

فى المرأة أيضا ميول عدوانية من النوع السلبى ، كالعصيان عن عمل اللازم والمطلوب •

من عوامل البناء البيولوجى (الجسمى الحيوى) فى الرجل الذكاء وميله تبعا لذكائه الى الفضيلة • بذلك يستطيع المحافظة على صحته ، الجسم السليم فى العقل السليم ، والاهتمام بعمله المهنى آو الحرفى فيزداد دخله ويطمئن فى معيشته • كلما ارتقى الانسان بعقله زاد عمره •

أما معاول الهدم فى الرجل ، ومنها ميوله العدوانية ، فهى ادمانه على الكيوف (التبغ ، الخمر ، المخدرات ، المنبهات) المخاطرة بحياته فى الحروب ، والشجار مع الغير للحصول على أكثر ما يريد ، والانهماك الحسى فى الملذات ، والسهر الطويل ، وممارسة الرياضات الخطرة كسباق السيارات والدراجات البخارية والتزحلق على الجليد فى الجبال ، وتعرضه لمخاطر الطبيعة حينما يخرج للصيد فى البرارى الوعرة والبحر •

لم يؤثر الأمان بالبقاء فى البيت على تعرضه للمخاطر، ليحصل على قوته وقوت عياله •

ولم يختلف رجل الأمس عن اليوم من ناحية المضمون ، كان يخرج للصيد ليحصل على رزقه ، فأصبح يخرج الى الدواوين والمكاتب والمحال التجارية لنفس الغرض • وحتى عندما عمل داخل المبانى الآمنة المكيفة ، وانتقل بالسيارة من مكان الى مكان ، واختار الرياضيات السهلة الآمنة داخل النوادى الرياضية ، وتجنب أكثر المخاطر التى كان يتعرض لها آباؤه وأجداده ، مع كل هذا وقف هورمون الذكورة له بالمرصاد ليهدم حياته •

غير هورمون الذكورة من تركيب الأحماض الدهنية فى الرجل وناتج تمثيلها فى الجسم الى مادة « الكولوسترول » تترسب على جدران شرايينه فتتصلب وتضيق ، وأهمها الشرايين التاجية للقلب وشرايين المخ • لهذا قصر عمر الرجل عن عمر المرأة ، وتعرض وهو فى الأربعينات من عمره وأوج مجده للسكتات القلبية والدماغية • يموت الرجل عادة فى سن مبكرة عن المرأة بسبب رجولته ! تصور انه برجولته كان أقوى صحة وأمنع على الموت •

الرجل فى الخريف والشتاء :

ونعنى بالخريف والشتاء هنا الكهولة ، من سن ٥٥ الى ٦٥ ، والشيخوخة ، من سن ٦٥ الى ما يشاء الله • هذا القطاع من الرجال يكون حوالى ٢/٤١ فى المائة من مجموع الشعب المصرى ، أى حوالى ٢/٢١ مليون رجلا ، وهم الذين يملكون معظم الثروة فى مصر جمعوها من عرق جبينهم • ولكن لن يلبث أبناءهم أن يورثوهم فتتفتت الملكية ، ولا يتكرر الاقطاع السابق •

في هذا السن يتحول التمثيل الغـذائي بالتـدريج من البناء الى الهدم وحلول الضعف محل القوة · وأسوأ ما يحدث في فترة الخريف هو طلوع الكهل الى المعاش اذا كان موظفا في الحكومة أو القطاع العام · أما أسوأ ما يمكن حدوثه في فترة الشتاء فهي كثيرة منها العته ، فقدان الذاكرة ، الشلل بأنواعه ، الأورام الخبيثة · ولا يعتبر الموت حدثا في هاتين الفترتين ، بل نهاية محتومة لحياة رجونا جميعا انهـا كانت سعيدة ·

اذن ، هي فترة تؤدى في النهاية الى الضعف والانحدار ، غير الملحوظ في السنين الأولى ، ملحوظ ويشتكى منـه من الشيوخ في السنين الأخيرة ·

ألا ليت الشباب يعود يوما فأشكو له ما فعل المشيب

أين ذهب هورمون التستوستيرون ؟ موجود ·· ولـكن نسبته قلت ، والقليل الباقي لم يعد يؤثر في الجسم كما كان في السابق · ذهب الجنس بذكرياته الجميلة ، وبقى الحب ·· الحب بمعناه الكبير ·

أين ذهب العقل ؟ موجود ·· الا انه لا يعمـل بهمـة ونشاط كما كان في السابق ·

أين ذهبت الأسرة المتحلقة حوله ؟ موجودة ·· ولكن كل فرد من أفرادها في شأن ·· حتى الزوجة أصبحت تهتم أكثر بنفسها وشواغلها وأولادها وأحفادها · أصبح الزوج صديقا معتادا عليه ·

أين ذهب الأصدقاء ؟ موجودون ·· في بيوتهم في أغلب الأحوال ، لا يجمعهم به في الا الذكريات ·

وما بال الفراغ ، والملل ، والضجر ، والحزن ؟ موجود وبكثرة .. وحل محل النشاط والحركة . صورة معروفة تعتمد فى اشراقها ، أو اظلامها ، على قدرات المسن الباقية .

فى مصر ، كما فى العالم كله ، جمعيات خيرية لمساعدة المسنين . فات على هذه الجمعيات الموقرة آن الوقاية خير من العلاج وهى : اعمل فى صيفك ، من سن ٣٥ الى ٥٥ ، لخريفك وشتائك ، حتى لا تحتاج لأحد الا فى الضرورة . آلا يذكرنا هذا بالمثل الاسلامى العريق ، اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

الرجل والمجتمع :

مرت أزمنة سحيقة على الرجل المصرى قضاها فى العبودية ولم يتحرر الا منذ ٣٢ سنة فقط . كان على وشك التحرر سنة ١٨٨٢ ، بثورة عرابى ، ولكن تحرره بسبب الاحتلال البريطانى تأخر الى سنة ١٩٥٦ حينما جلا البريطانيون عن قاعدة القناة .

وتأخرت به العصور الوسطى ، عصور الظلمات ، الى سنة ١٨٥٠ .

ومع ذلك نرى الرجل المتعلم والمثقف فى مصر ، يقدر بخمسة فى المائة من عدد السكان ، يطالب ويلح فى الطلب بأن تلحق مصر بركب الحضارة الغربى الذى سبقها بأربعة قرون .

يوزع الشعب المصرى ، ٥٢ مليون ، على النحو التالى :

٢٦ مليون طفل سنهم أقل من ١٥ سنة بواقع ٥٠ فى المائة من الشعب .

١١½ مليون امرأة ما بين سن الخامسة عشر والستين بواقع ٢٢ فى المائة ٠

يقابلهن مثل هذا العدد تقريبا من الرجال فى هذا السن ، أى ١١½ مليون رجل ٠

١½ مليون امرأة فوق سن الستين ، ومثلهم من الرجال ٠

أى أن عدد الرجال فى مصر = ١١½ + ١½ = ١٣ مليون رجلا تقريبا ٠

ولنفترض أن من ٢ الى ٣ مليون من هؤلاء الـ ١٣ مليون رجلا متعلما ومثقفا ، لأن نسبة الأمية فى مصر ٧٠ فى المائة، أى ان ١٦ مليونا فقط من الرجال والنساء يلمون بالقراءة والكتابة من مجموع الشعب ٠ صورة بعيدة جدا عن الركب الحضارى الغربى ٠

يعلم الله كيف ظلم الرجل المصرى المتعلم المثقف نفسه عندما يريد ويأمل أن تلحق بلده بركب الحضارة الغربى ، لأنه يشعر بمساواته بالرجل الغربى ٠ لولا أنه ، بخلاف أخيه الغربى ، يحمل على أكتافه عبء ومسئولية خمسة أفراد من مواطنيه غير المتحررين فكريا وحضاريا ٠

فى سنة ١٩١٩ ذهبت السيدة منيرة ثابت ، احدى المشتغلات بالحركة الوطنية ، ولا توجد صلة قرابة بينها وبين المؤلف وان وددت لو أنها كانت قريبتى ، الى الزعيم الخالد سعد زغلول قائلة :

ــ تريد المرأة المصرية أن تتحرر اسوة بالرجل ٠

فرد عليها الزعيم ، وكان رحمه الله حاضر البديهة والنكتة ٠

ـ وهل تحرر الرجل المصرى حتى تطالب المرأة بتحررها !؟

مسكين الرجل المصرى :

١ ــ لم يدخل موقعة حربية منذ أمد طويل ، ومع ذلك يلوم نفسه الى حد الخزى لأنه خسر معارك مع اسرائيل .

٢ ــ لم يتعود الا منذ قليل على الحرية والحوار الديموقراطى ومع ذلك فهو مطالب بأن يكون حرا ديمقراطيا بين يوم وليلة .

٣ ــ لم يتعلم تعليما دنيويا ، غير دينيا ، الا منذ عهد قريب ، ومع ذلك فالمطلوب منه اللحاق بعصر التكنولوجيا راكبا صاروخا .

٤ ــ لم يتعود على وجود المرأة معه فى مختلف مجالات نشاطه ، ثم هو مطالب بالمساواة بينه وبين المرأة فى كل شيىء أسوة بأخيه الغربى .

٥ ــ مطالب بأن يرقى بمستواه المادى والاجتماعى حتى يخرج من نطاق العالم الثالث ويقترب من دائرة العالم المتقدم ، ولكن انتاجه بفعل الـ ٨٠ فى المائة الذين يحملهم على كاهله يقل بكثير عن استهلاكه .. نحن مجتمع الدعم والاستهلاك ٢٠ فى المائة من الشعب المصرى ينظمون نسلهم ، بينما الـ ٨٠ فى المائة ينسلون بكثرة . فى البلاد الراقية اقفلت العديد من المداس وتعطل الكثير من المدرسين عن العمل بسبب تحديد النسل. مصر ، ذات الامكانيات المحدودة، مثلها فى ذلك مثل كل بلاد العالم الثالث ، تزيد كل سنة

١½ مليون نسمة ، بينما فى بعض البلاد المتقدمة أصبح عدد المواليد مساويا لعدد الوفيات ·

صورة غير مشرقة اذا تمادينا فى المقارنة بيننا وبين الغرب ·

عزاؤنا أننا صحونا بعد نوم طويل · وأننا بعد طول النوم خرجنا منه شبه سالمين ، وذلك باثنين أو ثلاثة ملايين رجلا متعلما مثقفا ·

السؤال البسيط وجوابه الأبسط هو :

كيف نعرف أننا نتقدم ؟

انتظر جيلا كاملا ، ٣٠ سنة ، فان وجدت أن نسبة المحمولين على الأكتاف الى حامليهم قد نقصت ولو قليلا فاعلم أننا نتقدم ·

ملاحظات صديق أوروبى عن الرجل المصرى

سألنى مستفسرا عن بعض ملاحظات وأجبته عليها بصراحة :

س ــ بعض الشباب يسيرون فى الطريق العام ، اثنين اثنين ، متماسكى الأيدى كأنهما يتناجيان ·

ج ــ مازال المجتمع المصرى مجتمعا انفصاليا ، يفصل بين الفتى والفتاة ، وعملية مسك الأيدى هذه تشير الى الرغبة فى توثيق الصداقة والاعتزاز بها أكثر من أى شيىء آخر يتبادر الى ذهنك · وتزول هذه الظاهرة عندما يتزوج الشاب ·

س ــ الرجال يحيون الرجال المقربين اليهم بتقبيلهم فى

أفواههم وخدودهم وهم محتضنين بقـوة مع ضرب الظهـور بالأكف فى حنية ٠

ج ـ بذلك يؤكد المصريون لأنفسهم أنهم يعيشون فى دنيا الرجل ٠ انها علامة اخلاص وشرف النوع تجاه جنسه ، وكأن الواحد يقول للآخر ، أطلب ماتشاء من خدمات تجدنى رهن اشارتك مخلصا ٠

س ـ الرجل الأوروبى يقبل المرأة الأوربية الغريبة عنه، زميلة فى العمل أو زوجة صديق مثلا ، فى خدها اعترافا منه بفضلها عليه وحسن معاملتها له ٠

ج ـ مثـل هذه النسوة يعتبرن محرمات على الرجل ، ولهذا ففى تقبيلهن ، على ما فى ذلك من براءة ، يعتبر خدشا لحيائهن لا داعى له ٠

س ـ هنـاك نساء مصريات بلـغن الذروة فى التعليم والعمل والتحرر ، كأنهن أوروبيات تماما ٠

ج ـ هؤلاء يحاربن فى اتجـاههن المتحرر من النساء أكثر من الرجال ، وربما حسدا وغيرة من النساء ٠

س ـ كثيرون من الرجال المتعلمين المثقفين ذوى المراكز الهامة والحساسة « بوجهين » يجاملون ولا يفعلون ، يعدون ولا ينفذون ، ثم تكتشف فيما بعـد زيف وعودهم وكذب مشاعرهم ٠ الأجدر بهم والأنفع لهم أن يخلصوا فى القول والعمل ، أليست هذه من أصول الاسلام ؟

ج ـ هذه تراكمات من عهود المماليك ، ولا علاقة لها بالإسلام ، وأعتقد أنها لن تزول فى وقت قريب ٠

س ـ ما أجمل الغموض فى بلدكم ٠

ج ـ هذا سر بقائنا ٠

عود إلى.. الحزن

ما بـال الكتاب والشعراء والاجتمـاعيون والأطبـاء يتكلمـون فيما بينهم ويكثرون من الكتـابة عن ذلك الداء المصرى المستتر ، وأعنى به الحـزن • ولنواجـه أنفسنـا بصراحة •• لمـاذا نحن شعب « مفرفش » و « ابن نكتـة » ولا مبال ؟ سبب ذلك أننا فى أغلب الاحيان نداري بمرحنا وضحكنا حزنا دفينا كجبل الثلـج ، أقله ظاهر على السطح وأكثره فى أعماقنا •

اذا أراد المجتمع أن يعـالج هذا الحزن فيجب عليه أن يعيـد بنـاء نفسه من أساسه ويبنيـه من جديد على أسس سليمة • ذلك ما هو حادث الآن بشكل غير واضح تمـاما ، وربما غير ملموس أيضـا ، وقد يأخذ أجيـالا حتى يتحقق التغيير ، وندعوا فى النهاية أن يتحقق • **فمثـلا :**

١ ــ قد تحسن وضع المرأة الاجتماعى كثيرا عما كان عليه من جيل مضى، وان كان المشوار أمامها طويلا حتى تصل الى حد المساواة التامة فى الحقوق والواجبات مع الرجل •• فى مقدار وليس فى نوع المساواة •

٢ ــ قد أصبحنا أكثر حرية ، وواقعيــة ،، ومادية ، وانتاجا صناعيا مما كنا عليه قبل الثورة ٠

٣ ــ بدأنا نعتمد على أنفسنا ومواردنا الطبيعية ، مع تأكدنا أن الاستعمار الغربي الغنى مازال لنا بالمرصاد ولن يدعنا نتحرر بسهولة من قبضته ٠ استبدل الغرب بالاستعمار العسكرى آخر علمى اقتصادى تكنولوجى ٠

٤ ــ بعدنا عن الاحتكار الدينى الذى لجأنا اليه بكليتنا منذ عهود الضعف واقتربنا من الوعى السليم بأن الحياة دين ودنيا (معنويات وماديات) لا أحدهما فقط ٠

والى أن ينصلح حالنــا فسيبقى الحزن معنــا وان راح يتناقص مع الوقت ٠ كلما تحسن حال مجتمعنا قل حزننا ٠

سيقول البعض ان هناك شعوبا أرقى منا بكثير، الشعوب الاسكندنافية مثلا ، موجود فيها الحزن بدرجة أكثر وضوحا مما هو موجود عندنا ، قد يكــون ذلك صــحيحا فى الظاهر فقط ، وأرجو ألا ينسى القــارىء أن الحزن فينا ظاهــرى وعميق ٠

الحزن الذى أتكلم عنه هنا هو الذى دفع بـ ٢٥ فى المائة من الرجال الى تدخين الحشيش حتى فى أفراحهم ٠ الحــزن الذى دفع الشباب والرجال الى الادمان على المخدرات العظيمة فى الآونة الأخيرة ٠ الحــزن الذى جعــل المصريين يغــالون ويطيلون فى الحزن اذا حزنوا ٠ الحزن الذى صبغ أغانيهم بالحزن واللوعة والألم ٠ الحزن الذى جعلهم لا يحصلون فى الدراسة ، ولا ينتجون كما يجب ٠ الحزن الذى جعلهم ينقادون انقيادا أعمى وراء الاعراف والتقاليد البالية ٠ الحزن الذى يظهر عليهم فى أحيان كثيرة فى شكل لا مبالاة ، ولا ارادة ،

ولا دافع الى الأحسن . الحزن الذى جعلهم لأجيال سحيقة يرتضون لأنفسهم الجهل والفقر والمرض .

اذا تتبعنا أصل علة العلل فى الشعب المصرى وهى كثيرة وجدناها فى حزنه الدفين المستقر فى النفوس . آما ما سبب هذا الحزن « المقرح » فالجواب فى تاريخ الشعب المصرى القريب والبعيد ، الذى يجب آن يكون معروفا جيدا لكل مصرى بلا زواق أو تجميل .. آو دعايات اعلامية تصور انه لم يكن فى الامكان أبدع مما كان .

سبق أن نوهت فى مقالى دفاع عن الحزن (أنظر الجزء الثانى من كتاب الطب النفسى المبسط) آن الحزن قد يكون عرضا من أعراض مرض الاكتئاب ولكنه ليس هو مرض الاكتئاب . كذلك نوهت الى آن الحزن يزداد فى المرء مع السن ، كلما كبر الانسان زاد حزنه . ولهذا سأتكلم هنا عن الحزن فى الكبار ، أو المسنين الذين يكونون ٦ فى المائة من الشعب المصرى ، نساء أو رجالا على السواء .

قابلته صدفة فى النادى فحييته مرحبا ولم آره منذ وقت طويل . عرفنى ولكنه وضع يده على جبينه لأنه لم يتذكر اسمى ، وعندما ذكرته به فكأنما استرجع ذكرياته معى بسرعة وابتسم معتذرا . كان لابد فى الخامسة والستون أو جاوزها بقليل ،ورأيت ماكنت آبحث عنه .. نظرة الحزن فى عينيه . تأبط ذراعى وسار بى الى صالون النادى ، قال حيث الشاى المنعش .

كان فى شبابه ملء السمع والبصر ، آغرته الدنيا فاغتر بها . عاش عيشة راقية مرفهة واستفاد من التحول الاجتماعى الذى أحدثته الثورة . سكن شقة فاخرة تطل على النيل فى

أحسن موقع في أحسن حى فى القاهرة وفرح بها لأن ايجارها زهيد ·· نزل عليها التخفيض مرتين · كان قد تزوج وهو من عائلة معروفة من ذات جمال وحسب ونسب ·

هكذا بدا للمحيطين به أن مستقبله سيكون حافلا بالمزايا العينية والمعنوية ·

كان قد انضم على نحو ما الى سلك الجيش عندما أصبح الجيش هو كل شيء فى مصر التى خطت خطوتها الأولى نحو التحرر والاشتراكية · توفر له كل شيء المنصب المرموق ، والدخل المرتفع ، والشباب ، والحيـــاة الزوجية الهنيئة ، والأولاد ··ولد وبنت ·

يبدو واضحا من هيأته ونبرة صوته ونظرته الحزينة أنه لم يعمل حسابا للزمن · ومن مقعده الوثير فى صالون النادى بدأ يتكلم :

ـ فرحت بالمنصب المرموق ، والدخل الوفير ، وبشبابى ، وحياتى الخـــاصة · لم أعمل حسابا للزمن ·كنت شريفـــا كشرف عائلتى ، وكنت مشغولا أيما انشغال بما يعهد الى من أعمال جسام · ومر العمر كمر السحاب كما هى العادة على غير توقع · وكما يحدث دائما ، تنبهت لأجد نفسى وأنا على المعاش ·· دخل محدود ، وتحويشة سرعان ما تبخرت فى جواز البنت ثم الولد ·

سألته :

ـ ولماذا لم تعمل بعد طلوعك على المعاش وأنت خبير فى مجالك ؟

قال والحزن باديا على قسمات وجهه ·

ـ لن تصدقنى اذا قلت لك ان ماضيى الوظيفى الهائل وقف حائلا دون ايجاد وظيفة مناسبة بعد آن آحلت الى المعاش . كأن الناس كانوا يتهيبوننى فلا يعطونى عملا مناسبا خشية أن أرفضه .

وضح أنه كان يخجل من أن يتولى أى وظيفة . وظل يبحث عن عمل عند معارفه الكثيرين ولا عمل والغلاء يأكل دخله على مر الأيام حتى أصبح الدخل محدودا فضاقت عليه الدنيا .

وفاض به الحزن ، واضطرب نومه ، وقل وزنه ، ودمعت عيناه لأقل مؤثر فلجأ الى الأطباء وصفوا له العقاقير المهدئه وضد الاكتئاب .

سألته :

ـ وهل تحسنت على الحبوب حالة الحزن معك .

ـ نعم ، لم أعد أبكى بسرعة كما كنت .

وابتسم ، ولكن ابتسامته كانت مفعمة بالرضى الأليم ، ثم قال بعد صمت قصير :

ـ أتعرف صديقنا فلان ؟

ـ نعم ، مازال يملأ الدنيا عملا ونشاطا ودعاية لنفسه وعمله كل يوم تقريبا فى الصحف .

ـ قصدته منذ وقت قريب وسألته أن يجد لى عملا شارحا له ظروفى ، ووعدنى خيرا . لكن الى الآن لم يرد على .. ولا أنتظر منه خيرا .

سألته كيف يمضى أوقاته . قال :

ـ استيقظ فى العاشرة والنصف صباحا (وهذا معناه أنه يعانى من الأرق فى الليل) وآتناول طعام افطارى فى الفرانده المطلة على النيل أنا وزوجتى فى الحادية عشرة والنصف . ثم آتى هنا الى النادى لانضم الى الجماعة .. عواجيزمثلى ..وأظل اسمع كلاما فارغا الى الساعة الثانية حيث ينصرف الجميع الى بيوتهم وقد عضهم الجوع الا أنا . على أن أنتظر الى الساعة الثانية والنصف وأحيانا الثالثه لأمر على حفيدى لآخذه من المدرسة الى البيت . فاذا وصلت الى بيتى ، فلا أغادره فى أغلب الايام الى فى صباح اليوم التالى .. لم تعد السواقة تروق لى فى الليل .

وكيف تقضى وقتك فى المساء ؟

ـ أمام التليفزيون والفيديو . نظرى ضعف كثيرا لاصابتى بمبادىء المياة البيضاء ، وحتى الجريدة اليومية أصبحت لا أستطيع قراءتها .

ـ ألا تلعب رياضة ما ؟

ـ لا ، فأنا أشعر بألم فى صدرى عند عمل مجهود أكثر من المعتاد وتزول اذا توفقت عن العمل أو المشى . يقول طبيبى بعد أن عمل رسما كهربائيا للقلب أنى مصاب بالذبحة الصدرية .

واستاذن راجيا أن يرانى مرة أخرى فعنده الكثير مما يود أن يقوله لى .

من طبع الانسان المتعلم المثقف كبت عاطفة الحزن خجلا من اظهارها للغير ،ولهذا لم يقل لى صديقى صراحة انه حزين بل على العكس أبدى سرورا لرؤيتى وظل طول الوقت الذى قضيناه معا محافظا على ابتسامته الاجتماعية الساحرة .

ولا أظن أن صديقى عانى من مرض الاكتئــاب ، ولم يكن هناك داعى لوصف عقاقير مهدئه وضد الاكتئـاب له ٠ كان يشكو من الحزن فقط وهذا شيء ليس نادرا لمن فى مثل سنه وحالته ٠

هذا الحزن نسميه « حزنا وجوديا » سببــه شعور المرء بعبث وجوده ، وأنه بالنسبة للوجود أصبح غير ذى موضوع ، أو كما يقال فى هذه الأيام « يلعب فى الوقت الضــائع » ٠ وعادة لا يفقد الحزين ، بخلاف مريض الاكتئاب ، بصيرته بحاله ٠ وفى الغالب ينفع مع هؤلاء الشيوخ المسنين ، خاصة المتعلمين والمثقفين علاج التحليــل النفسى الوجودى (أنظر دفاع عن الوجودية فى الجزء الثانى من كتاب الطب النفسى المبسط) ٠

يسأل الطبيب مثل هؤلاء المرضى الاسئله التالية :

ــ هل تشعر بوجودك فى الحياة وتستمتع به ؟

ــ هل تشعر بالتعب والاجهاد أكثر من المعتاد أثنــاء الصباح ؟

ــ هل تجد صعوبة فى اتخاذ قراراتك فى الآونة الأخيرة ؟

ــ هل تقلق أو تتوتر أكثر من المعتاد بسبب أو غــير سبب ؟

ــ هل يصيبك صداع أو ضيق فى الصدر أو زغللة فى العينين أو أى أوجاع فى أماكن مختلفة من جسمك ؟

ــ هل قلت شهيتك للطعام أو نقص وزنك مؤخرا ؟

ــ هل تسرح فى الماضى طويلا وتحزنك حينئذ الذكريات؟

ــ هل قل الدافع الجنسى أو توقف مؤخرا ؟

يلاحظ أن الأسئلة قد توحى للحزانا ، خاصة المصابين أصلا ، باجابات قد تضخم من حزنهم أكثر من الواقع • ولكن الأطباء فى الغالب يعتمدون على خبراتهم وقدراتهم الطبية على اجلاء مدى الحزن والتفرقة بينه وبين مرض الاكتئاب أكثر من اعتمادهم على قوائم أسئلة معينة •

العلاج:

يبصر العلاج النفسى الوجودى كبار السن الحزانا بفائدة الاعتدال فى التفكير والتزام الواقع ما أمكنهم فى شتى الأمور • وألا يستسلموا لأفكارهم الوجودية الكئيبة فيتحدثون عنها للأقربين لهم حتى يهون الأقربون من واقع الافكار الحزينة عليهم • وفى رأيى أن الرجوع الى الله تعالى عن طريق الاديان رحمة بهؤلاء الناس ، ولو انه ليس من عمل الطبيب النفسى وعظ الناس بأمور دينهم ، بينما لا يقصده المرضى عادة ليسألوه موعظة بلا علاجا طبيا •

اذا حمل الى كهل أو شيخ حزنه ومشكلة وجوده قمت بعلاجه بواسطة التحليل النفسى الوجودى مراعيا مقدار فهمه وثقافته وعقيدته الدينية • وغالباما أعيده بواسطة العلاج الى حالته السوية قبلما تعقدت به الأمور والأفكار • أفسر لهماحدث عضويا ونفسيا حتى يستعيد بصيرته • وقد أشير عليه بعد ذلك باللجوء الى رجل دين أوقريب أو صديق ممن قد يعينه ويأخذ بيده •

ويجب على الطبيب ألا ينسى أن الحزن الوجودى لايمنع أن يكون عرضا من أعراض الاكتئاب الداخلى أو غيره من أنواع الاكتئاب • فى هذه الحالات يهمل الطبيب عرض

الحزن الوجودى ويعالج المريض حينئذ بالطـرق الطبيـة ، العقاقير أو الصدمات الكهربائية أو ادخاله المستشفى مخافة أن تتعقد الأمور بالمريض أكثرمما هى عليه من تعقيد اذا كان مصابا باكتئاب داخلى • وغالبا ما يشفى المريض بـلا أثر لحزنه الوجودى •

نظـــريـــة..
الخوف العام

أولا : وقفة طويلة على التاريخ :

قد يتساءل القارىء ما العلاقة بين الطب النفسى والتاريخ ، وأسارع فأقول أن الطب النفسى هو التاريخ . فمثلا ، قضية الجنون العام قضية قديمة قدم التاريخ .

قيام وسقوط الامبراطورية العربية الاسلامية (٦٣٣ — ١٢٥٨ م) .

فى سنة ٦٣٣ م ، بعد وفاة النبى محمد عليه السلام بعام واحد ، خرج العرب المسلمون من شبه جزيرتهم الجرداء وهاجموا أكبر امبراطوريتين فى ذلك الوقت ، فارس وكانت تشمل العراق وايران وأفغانستان ، وبيزنطة وكانت تدعى الامبراطورية الرومانية الشرقية .

كانت الامبراطوريتان العظيمتان قد أجهدتا تماما بحرب دام بينهما ثلاثين عاما ولم يجنيا منها شيئا الا الفقر والدمار ، وبقيت كل امبراطورية عند حدودها الأولى قبل قيام الحرب

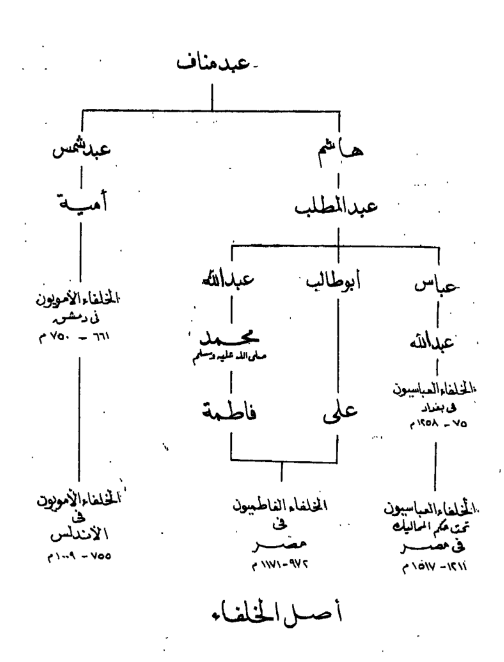
بينهما . لذلك سهل على العرب اسقاط فارس كلها والاستيلاء عليها ، وعلى بلاد الشام الى جبال طرسوس (غرب تركيا) من بيزنطة .

ومن الصعب تفسير لماذا كانت الامبراطوريتان اللتان وسعتا العالم المتحضر فى ذلك الوقت فى حالة حرب طاحنة دائمة بينهما ، وكل منها كان عندها ما يكفيها وزيادة ، الا الخوف من أن تغير الواحدة على الأخرى ، أو طمعا فى التوسع والامتلاك . أو يكون « الجنون العام » الذى أصابهما فى أواخر أيامهما الى الدمار والفناء .

فى أقل من ثمانين عاما تبلورت القومية العربية بارساء امبراطورية امتدت من المحيط الأطلسى الى الصين . ثم تحولت القومية العربية الى قومية اسلامية ، ثم الى قومية « حب سيدنا محمد وأهل بيته » مما لم يكن ليرضى عنه النبى عليه السلام نفسه أو الصحابة لودروا أن ذلك سيحدث فى يوم من الأيام . (انظر الشكل) .

لم يعش للنبى عليه السلام أبناء الا السيدة فاطمة عليها السلام . وكان للنبى عمان . أبو طالب وعباس . أبو طالب أنجب سيدنا على الذى تزوج بالسيدة فاطمة ، ومن سلالتهما تكونت الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا ثم فى مصر والشام (٩٧٢ ـ ١١٧١م)

وكان لجد النبى الأكبر ، هاشم ، شقيق يدعى عبد شمس ، وهذا أنجب أمية . من سلالة أمية نشأت الدولة الأموية فى دمشق (٦٦١ ـ ٧٥٠ م) ، وكان هناك فرع للأمويين حكموا الأندلس من سنة ٧٥٥ الى ١٠٠٩م .



أصل الخلفاء

من سلالة عم النبى عباس جاء الخلفاء العباسيون الذين حكموا الامبراطورية من بغداد (٧٥٠ ـ ١٢٥٨م) ٠ ثم انتقلت الخلافة العباسية بعد قضاء التتار على بغـداد ومن فيها الى القاهرة وظلت قائمة فى القاهرة ، اسما فقط ، من سنة ١٢٢١ الى سنة ١٥١٧م بينما كان الفعل للمماليك ٠

من سنة ١٥١٧ الى ١٩٢٤ تولى سـلاطين آل عثمان الأتراك الخلافة على المسلمين الى أن انتهت الخلافة بظهـور القوميات الاقليمية العربية المستقلة ٠

منذ سنة ٦٦١ م أصبح أهل بيت النبى رمزا للقوميتين العربية والاسلامية ٠ آما القومية الاسلامية فقد استمرت الى الآن ، وستستمر ان شاء الله الى يوم الدين ، وأما القومية العربية فقد أصبحت اسما فقط منذ آن قضى التتار على بغداد وتولى المماليك حكم مصر والشام سنة ١٢٦١م ٠

كانت « المدينة » آول عاصمة للامبراطورية العربيـة الاسلامية ٠ ولكن فى سنة ٦٦١ م رأى الأمويون أن تكون « دمشق » عاصمة لهم لموقعها المتوسط بين الامبراطورية المترامية الأطراف ، لبعدها عن العرب الطامعين فى ملكهم والمتربصين لهم ٠ نقل الأمويون نظام الحـكم والسياسـة والادارة عن البيزنطيين ٠ أقاموا لهم القصور المشيدة لتحجبهم عن الناس ، وأقاموا فيها العروش العالية يحيط بها الحراس ورجال الدولة والمريدون والمداحون وأهل الحاجة ٠٠ صورة مغايرة تماما لما كان عليه الحال أيام الخلفاء الراشدين فى المدينة ٠ استمرت الدولة الأموية تسعة وثمانين عاما ، وكان عهدها عهد عروبة وفتوحات وقوة وفخر ٠

استعان العباسيون بالفرس للتغلب على آبناء عمومتهم الأمويين وأخذ الخلافة منهم سنة ٧٥٠م ٠ آقام العباسون لهم عاصمة « بغداد » قرب آعوانهم الفرس وبعيدا عن العرب المنقلبين الطامعين فى الحـكم ٠ وهـكذا آصبح العباسيون وهم أقوى قوة ، وعاصمتهم آغنى بلد فى العـالم ٠ أوحى الفـرس ، الأكثر تحضرا وتعقيدا ، الى العباسيين بأنهـم

يحكمون بأمر الله ، وانهم لذلك ظل الله فى أرضه ، الحاكمية الالهية ، فصدق العباسيون هذا الاعتقاد وغالوا فيه ، ونسوا انهم فقط خلفاء رسول الله على المسلمين ٠

يصعب علينا فى أيامنا هذه أن نتصور ما كانت عليه بغداد أيام العباسيين من عز وأبهة وعظمة ٠ كان سكانها يرفلون فى الحرير والذهب والياقوت والمرجان ، وكانت قصورهم وبيوتهم وحدائقها وشوارعها مفروشة بأفخر الرياش المطعمة بالعاج والذهب ، وممهدة بالذهب ٠ وحتى سروج الخيول والأسلحة والخوذات والدروع كانت مكسوة بالذهب ٠ ولن نتكلم عن ثقافتهم العالية التى جمعوها من الاغريق والرومان والهنود والبابليين والأشوريين والفرس ثم بنوا عليها من عندهم حتى أصبحت ثقافة عربية اسلامية خالصة ، لكن هذه ليست بذات موضوع هنا ٠

وكما حدث لكل امبراطورية فى التاريخ ، تبدأ قوية ثم تنتهى منحلة ، حدث ذلك للعرب المسلمين أيام العباسيين ٠ كان من أول مظاهر الانحلال تخوف الخلفاء العباسيين من ازدياد وتغلغل نفوذ الفرس والعرب فى شؤون الحكم ، وسلب احدى هاتين القوتين الحكم منهم كما حدث لأبناء عمومتهم الأمويين ٠ كان من نتيجة ذلك ، مثلا ، نكبة البرامكة الفارسيى الأصل ٠ لم يهدأ رعب الخليفة هارون الرشيد الجنونى على ملكه العريض الا عندما أراه مسرور السياف رأس جعفر البرمكى ، وزيره وصديق عمره ، على طبق من فضة !

تصور الخلفاء العباسيون أنفسهم وهم يحكمون واقفين على ظهرى جوادين أحدهما فارسى والآخر عربى ٠ وكان خوفهم من أن تزل أقدامهم فيسقطوا تحت حوافر الجوادين

المتسارعين تحتهم فتدق أعناقهم • كان فى تزايد خوف العباسيين على ملكهم اعتراف ضمنى منهم بضعفهم وقرب زوال حكمهم •

كان الخليفة الثامن المعتصم بالله (٨٣٢ ـ ٨٤٢م) آخر الخلفاء العباسيين الأقوياء • كون المعتصم ، تمشيا مع سياسة من سبقوه من حلفاء ، جيشا من الجنود المرتزقة الأتراك يقرب من الثلاثين الى الأربعين ألفا ، ليحميه من أعدائه المتربصين به فى الداخل ، الفرس والعرب ، وليحارب به البيزنطيين الذين حاربهم وتغلب عليهم غلبا ساحقا •

ولم يدر المعتصم أنه قد بدأ عهد الجنود المرتزقة الذى استمر بعده لألف عام • من تلك الجنود المرتزقة تكونت فيما بعد بأربعمائة عام دولة المماليك فى مصر والشام • لم يتصور المعتصم أن جنته الاسلامية التى يجنى منها الشهد ، والتى وسعت العالم المتحضر كله يمكن فى يوم من الأيام أن تزول • ولكن عجلة الانحلال اذا بدأت تسير بمجتمع تستمر عادة فى السير نحو الانحدار فلا تتوقف الا أن تصل بالمجتمع الى الهاوية •

وعلى عكس المعتصم ، كان الخليفة العباسى التاسع ثم العاشر ضعيفى الشخصية ، حتى أن قواد جيشهما المرتزقة عاملوهما باستهزاء واحتقار ووقاحة •

كان الخليفة المتوكل قد أخذ العهد للخلافة لأبنه الأكبر المنتصر • ولكن المتوكل تزوج فيما بعد جارية يونانية أنجب منها المعتز • ولما كان الخليفة المتوكل واقعا تحت تأثير زوجتة أم المعتز ، جعلته هذه يعدل عن رأيه ويأخذ العهد لابنها بدلا

من المنتصر : لم يرض حراس القصر بالظلم الذى وقع على المنتصر ، فقتلوا الخليفة وأقاموا المنتصر خليفة .

وكأنما تنبه الحراس بعد آن تمت الفعلة النكراء أنهم قتلوا الخليفة ، أقوى رجل فى العالم ، وأقاموا خليفة آخر ، وبامكانهم اذا أرادوا تكرار ما فعلوه مرة ومرة . بذلك أصبح الحراس وقادة الجيش القوة وراء الخليفة .. القوة وراء الضعف .

ولم يكن أولئك الحراس الأتراك المرتزقة ثوارا ، أو لهم طمع فى الحكم ، ولا أى مبادىء استدعت قتل الخليفة . فقط اشتركوا فى مؤامرة من مؤامرات القصور .

وبذلك دخلت بغداد عهدا من الانحلال والفوضى و « الجنون العام » استمر ١٢٧ سنة ، أقام وعزل وقتل الحراس وقادة الجيش الأتراك أربعة عشر خليفة : ستة قتلوا بيد الحراس ، ثلاثة سجنوا بعد آن خلعوا عن العرش وماتوا فى السجن بعد أن فقدوا نعمة البصر ، وخمسة حكموا بالاسم فقط الى أن توفاهم الله وفاة طبيعية .

لم يحكم الخلفاء العباسيون بعد ذلك امبراطوريتهم من بغداد . ومع ذلك تماسكت الامبراطورية لحوالى ٢٥٠ سنة برمزية الخليفة العباسى ، أمير المؤمنين وسليل أهل البيت النبوى الشريف .

عندما تبينت الولايات التابعة لبغداد آن الخليفة أصبح ألعوبة فى يد حراسة وقواد جنده المرتزقة الهمج ، انسلخت عن بغداد واستقلت كل ولاية بنفسها محتفظة بولاء اسمى فقط للخليفة أمير المؤمنين . منذ ذلك الوقت حكم مصر

والشام (دائما كانت مصر والشـام) الدول شبه المستقلة التالية :

١ ـ الدولة الطولونية (٨٦٨ ـ ٩٠٥م) ٣٧ سنة ٠

بدأها أحمد بن طولون وكان حاكما حازما ومصلحا كبيرا مما أشاع الأمن والرخاء فى مصر ٠ واذا تذكرنا ابن طولون تذكرنا المثل المشهور ، مصائب قوم عند قوم فوائد، للسبب التالى :

لما دب الانحلال وعدم الاستقرار والضعف فى بغداد ، تحولت تجارة الهند وجنوب شرق آسيا من الخليج العربى الى أوروبا متخذة لها طريقا أكثر أمنا وسلامة واستقرارا وهو البحر الأحمر ، السويس ، فأوروبا ٠ بذلك ازدادت بغداد فقرا واغتنت مصر من تجارة الترانسيت غناء فاحشا تحسد عليه ٠ ذلك كان بفضل أحمد بن طولون وسياسته الحكيمة التى أرست الأمن والأمان فى مصر ٠

تلى أحمد بن طولون على عرش مصر التى أصبحت غنية ابنه « خمارويه » الذى تعود شهرته الى أنه زوج ابنتـه « قطر الندى » للخليفة العباسى المعتضد فى بغداد ٠ بلغت نفقات جهاز قطر الندى مليون دينـار ! وأمر خمارويه أن يبنى لابنته قصرا على رأس كل مرحلة تنزل فيهـا فيما بين « القطائع » (عاصمة الطولونيين فى مصر قبل أن ينشىء الفاطميون القاهرة) وبغداد ٠ فى كل قصر جميع ما تحتاجه الأميرة قطر الندى من وسـائل الراحة وأسباب الرفاهيـة

وكأنها في قصر أبيها في القطائع . وغنى الشعب المصرى المطحون أغنيته الفولكلورية المشهورة التي مطلعها :
ياالحنة يالحنة ياقطر الندى   ياشباك حبيبي جلاب الهوى

٢ ـ الدولة الاخشيدية (٩٣٥ ـ ٩٦٩م) ٣٤ سنة .

لاحظ أن مصر عانت عهدا من الفوضى بعد انهيار الدولة الطولونية دام ٣٠ سنة الى آن هيألها الله لها محمد بن طفج الاخشيد سنة ٩٣٥م .

لما مات اخشيد عهد الحكم من بعده لابنه أبو القاسم أنوجور وكان طفلا فتولى الوصاية عليه كافور الاخشيدى. كان كافور ، بالمقارنة الى المماليك ، العبد الاسود الوحيد الذى حكم مصر . ولكن الخطوات التى مر بها كافور حتى أصبح الحاكم الفعلى لمصر هى نفسها الخطوات التى كان يمر بها المماليك ليصبحوا حكاما . تدرج كافور فى بلاط الاخشيد الى أن أصبح مربيا لأولاده ، ثم قائدا من قواده . اكتسب كافور محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين ، وخاطبه علية القوم بلقب « أستاذ » ، وظل أنوجود الاخشيد مسلوب السلطة حتى وفاته . مدح الشاعر المتنبى كافورا ثم هجاه .

عند وفاة كافور سنة ٩٦٧م ، اجتمع كبار القواد ورجال الدولة وأسندوا الولاية لحفيد الاخشيد ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره . أصبحت البلاد فى عهد الحفيد فى فوضى مما سهل للفاطميين فتح مصر والاستيلاء عليها .

٣ ـ الدولة الفاطمية فى مصر (٩٦٨ـ١١٧١م)٢٠٣ سنة.

بدأت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة ٩٠٩م ، وبعد ستين سنة من الازدهار فى المغرب آمكنهم الاستيلاء على

مصر . وهم الذين آنشئوا مدينة القاهرة لتكون عاصمة لهم، ومازالت معالمها وأسوارها موجـودة الى الآن . يلاحظ أن الفاطميين منذ منتصف حكمهم استعانوا بالجنود المرتزقة من المماليك الترك والصقالبة (مماليك آوروبا) ، وربما هم الذين ابتدعوا كلمة المماليك . وان كان الخلفاء العباسيون هم أول من استعمل المماليك فى الجيش خوفا من نفوذ الفرس وغدر العرب ولكن المماليك لم يزدد خطرهم الا فى الدولة الأيوبية وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى .

٤ ــ الدولة الأيوبية (١١٧١ ــ ١٢٥٠م) ٧٩ سنة :

نسبة الى صلاح الدين بن يوسف بن آيوب وزير الخليفة العاضد الفاطمى . استأثر بالحكم لنفسه وقضى بذلك عـلى الدولة الفاطمية المنهارة . أدرك صلاح الدين ، وهو كردي مرتزق كان لأمير دمشق وحلب ، آن من يملك مصر الغنيـة سيكون له الغلبة على الصليبيين والشرق الأوسط كله . فى مدى عشر سنوات آمكن لصـلاح الدين بواسـطة جيش من الاكراد والترك أن يوحد مصر وسوريا ، ويقضى على جيوش الصليبيين فى موقعة « حطين » فى ٤ يوليو ١١٨٧م ويستولى على مملكة بيت المقدس . ولكن الصليبيين بقوا فى الشـام ١٠٤ سنة بعد صلاح الدين قبل آن يرحلوا عنها الى الابد فى سنة ١٢٩١م .

كان آخر السلاطين الأيوبيين هو السلطان الرابع الصالح أيوب ، وكان ابن جارية حبشية ، الذى تزوج شـجر الدر (شجرة الدر) الجارية التركية التى وهبه اياها الخليفـة المستعصم . والصالح أيوب هو الذى كون جيشا كاملا من

المماليك أسكنهم جزيرة الروضة فلقبوا لذلك بالمماليك البحرية . وسنعود بالتفصيل الى شجر الدر فيما بعد .

٥ ـ دولة المماليك (١٢٦٠ ـ ١٥١٧م)٢٥٧ سنة .

كنت أجهل عن المماليك وعصرهم الى أن وجدت نفسى فى أجازة صيف محاطا بكتب عن المماليك، جمعت لى كيفما اتفق ضمن كتب نصحت بقراءتها فى الأجازة الطويلة . اكتشفت عندما تصفحت الكتب عن المماليك أنى لا أعرف عنهم الكثير، ربما لأن ما أخذته عنهم فى المدرسة كان قليلا وسطحيا بحيث لم يمكث حيا فى ذاكرتى طويلا . ورحت أسأل أصدقائى المصريين عما يعرفون عن المماليك فلم أجد بينهم من هو أحسن حالا منى الا المتخصصين طبعا . قال لى صديق عن المماليك متندرا :

ـ آه ، المماليك ، أولئك العبيد الذين اشتريناهم ليحكمونا .

وكان فى جواب صديقى ، على علاته ، صورة من صور « الجنون العام » اذ كيف يشترى انسان عبدا ليحكمه !

وكان جوابا ذكيا لاذعا ، ولكنى عندما قرأت عن المماليك وجدته مجانيا للحقيقة . فالمصريون لم يشتروا المماليك ، وانما المماليك هم الذين اشتروا أنفسهم بأنفسهم كما سيلى شرحه فيما بعد .

ولم أجد بين أصدقائى الغربيين أيضا من يعرف شيئا يذكر عن المماليك . ثم تبين لى أن الغربيين عموما مصابون بعقدة الحضارة العربية الاسلامية وفشل الحملة الصليبية . كانت أوروبا المسيحية تعيش قرون العصور الوسطى فى رعب دائم من غزو العرب لها وكأنه كابوس ثقيل . ويقال

ان الأوربيين اتفقوا مع التتار ليتحدوا مع الصليبيين لهزيمة المسلمين ٠

هذه المشاعر الكئيبة من الخوف من الهزيمة والتشتت جعلت الأوروبيين فيما بعد يغفلون عن تدريس حضارة العرب .وعصر المماليك الذين آنهوا الحروب الصليبية الى الأبد، في مدارسهم وقصروها على بعض جامعاتهم المتخصصة ٠

ذلك عذر الغربيين فى جهلهم بالمماليك وعصرهم ، فما هو عذرنا ؟

وعذرنا واضح ، المماليك كانوا الاسياد (السلاطين) العبيد الذين حكموا المصريين المستضعفين ، سواء شاء المصريون أو لم يشؤوا، واحطوا من شأنهم وامتصوا ثرواتهم الطبيعية بحجة الدفاع عنهم ، ما كان المماليك يدافعوا الا عن كيانهم ومنفعتهم ٠

تنقسم دولة المماليك الى ثلاثة أقسام :

١ ـ دولة المماليك الأولى ، آو البحرية ، وكانوا أتراكا (١٢٦٠ ـ ١٣٧٧) ١١٧ سنة ٠

٢ ـ دولة المماليك الثانية ، أو البرجية ، وكانوا من الشراكسة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) ٢٣٥ سنة ٠

٣ ـ دولة المماليك الثالثة ، أو دولة المماليك البكوات ، أثناء الحكم العثمانى لمصر ٠ كان المملوك حاكم مصر الفعلى، مع الباشا الوالى الاسمى ، يدعى « شيخ البلد » ٠ ومنهم كان مراد بك الذى حارب نابليون فى موقعة امبابة فى ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ ٠ استمرت دولة المماليك الثالثة الى أن قضى عليها محمد على فى مذبحة القلعة الشهيرة سنة ١٨١١ ٠

وعلى ذلك يكون المماليك قد حكموا مصر لفترة تزيد عن خمسة قرون من الفوضى والفساد والانحلال والضعف ·· و « الجنون العام » ·

أصل المماليك :

ليس الرق (امتلاك العبيد) غريبا على العرب قبل وبعد اسلامهم · ازدادت تجارة الرقيق بعد الفتوح الاسلامية ، واتسعت وراجت بعد أن أصبحت الامبراطورية العربية الاسلامية أغنى بلاد العالم والأكثر تحضرا · اعتاد العرب فى معيشتهم على اقتناء الرقيق ، العبيد والجوارى ، ليخدموهم فى كل مجالات حياتهم · كان لمنظر العبد ، أو الجارية ، وحسن صورته ، واعتدال قوامه ، ولون بشرته ، وجمال شمائله ، دليل على مكانة مالكه الاجتماعية · كلما زادت المرتبة الاجتماعية زاد عدد العبيد ·

كان العبيد البيض يولدون فى سهول الاستبس القاحلة الجرداء الواقعة شرق بحر قزوين فى قارة آسيا · وكان يسكن الاستبس قبائل الترك الوثنية الهمجية ، توغل فيهم الفقر بسبب جفاف ووعورة أرضهم · كانوا قبائل رحل ، يعيشون معظم وقتهم على ظهور الجياد ، أصحاء الجسم شداد ، بل اعتبروا من أشد وأقسى الاجناس فى ذلك الوقت ، ينسلون بكثرة كالأرانب ، ويبيعون صبيانهم وبناتهم من الفقر الى أغنياء بغداد والعواصم العربية ·

أقبل العرب على شراء العبيد البيض فراجت تجارة النخاسين (تجار الرقيق) الذين كانوا يشترون الصبيان ولم يبلغوا سن الرشد ، فيعلموهم مبادىء الدين والسلوك

الحضارى ليرتفع ثمن العبد الأبيض الى ٢٥ دينارا · ويتولى السيدالعربى تعليم وتثقيف العبد على قدر استعداده وقدراته · ولم يكن العبيد البيض يكلفون بالأعمالالوضيعة كالكنس والرش ورعاية الدواب وما الى ذلك ، ولم يكن العبد الابيض ليرضى ، بالأعمال الوضيعة · كانوا بحكم جنسهم جمال الطلعة ، ظرفاء ، حلوا الشمائل ، يجيدون معاملة وركوب الجياد ، قابلين للتعليم ، مخلصين لمالكيهم طول حياة المالك · لذلك أطلق عليهم لفظ « المماليك » ·

كان الملاك عادة يعتقون المماليك اذا بلغوا مبلغ الرجال وهم مطمئنون الى اخلاصهم وولائهم لهم مدى الحياة · وكان المملوك يسمى مالكه ب « الأستاذ » أو بالتركية « الهوند » · لم تعرف الأجيال الأولى من المماليك اللغة العربية جيدا . ولكن الأجيال التالية أمكنها ، بطبيعة الحال ، اجادة اللغة العربية والتفقه فى الدين والعلم · خرج المماليك من حيز البيوت الى الخدمة فى الدواوين ثم فى الجيش الى أن وصلوا الى مراتب القواد والحكام ·

أثبت المماليك تفوقا ممتازا فى فنون الفروسية والقتال، وهم الذين ولدوا بين حوافر الجياد ، ومنها اصابة الهدف بالسهام من على ظهور الجياد وهى منطلقة بهم بأقصى سرعتها · وكان أن تتابعت الحوادث والأحداث كما نوهنا سابقا الى أن أصبح المماليك أسيادا والأسياد عبيدا ·

كما فعل العباسيون فعل الولاة التابعون لهم فكونوا الجيوش من الجنود المرتزقة ، المماليك ، حتى أصبحت الامبراطورية العربية الاسلامية كلها تحت رحمة المماليك ، وخاصة فى مصر والشام · وكان أن رأينا الخلفاء العباسيين يرسلون مماليك ارتقوا فى الادارة والجيش كولاة للاقاليم

التابعة لهم بدلا من العرب الذين لم يطمئنوا لهم ، كابن طولون ، والاخشيد ، وصلاح الدين الأيوبى .

لم تكن تجارة المماليك أيام العباسيين وما بعدها فى حاجة الى من يروجها أصلا ، اذا أنه كلما سمع أبناء القبائل، سواء كانوا الترك أو الشراكسة (وكانوا يسكنون بين بحر قزوين والبحر الاسود) أو الصقالبة (المماليك من أوروبا المسيحية) ، بما وصل اليه اخوانهم وأبناء عمومتهم الذين نزحوا الى البلاد العربية الغنية من أحوال رغدة وأمور ميسرة ومراكز مرموقة ، أقبلوا فى أفواج متزايدة على تجار الرقيق .. ليبيعونهم الى العرب حتى يكون حظهم مثل حظ من سبقوهم .

كان المملوك ، أيام حكم المماليك لمصر ، يذهب الى النخاس (تاجر الرقيق) طمعا فى أن يصبح فى يوم من الأيام سلطانا على مصر . هذه الظاهرة يوجد لها شبيهة فى أيامنا هذه فى العالم الثالث ، اذ يهاجر الشبان الى البلاد الغنية والمتقدمة طمعا فى ثروة أو جاه أو كليهما .

انتهى هنا من وقفتى على التاريخ لأنتقل الى تعريف الجنون العام ، ثم نعود الى التاريخ مرة أخرى لنأخذ منه « التطبيق » لنظرية الجنون العام .

ثانيا : ماذا أعنى بالجنون العام ؟ :

لا يوجد تعريف مبسط مختصر لما هو العقل . ولعل أحسن تعريف للعقل هو : القدرة على ادراك الأشياء على حقيقتها . ولهذا يميز العقل بين الفضائل والرذائل .

الفضائل هى ما حضت عليه الأديان السماوية ، أو هى بلغة الفلاسفة : الحق والخير والجمال .

والرذائل ما نهت عنه الأديان ، أو بلغـة الفلاسـفة : القبح والباطل والشر ٠

وتعتبر الفضائل من أهم صفات العقل المكتمل الناضج٠ كأن العقل والفضائل وجهان لعملة واحدة ٠ على قدر اكتمال نضج عقولنا تكون فضائلنا ٠ ونكون فضلاء ٠

وبالعقل يمكن للانسان ، بخلاف الحيوان ، التحكم فى ملاذه (شهواته) ، ولهذا سمى الانسان بحيوان عاقل ٠

ولعل أحسن تعريف للمرض العقلى هو : اختلاف المنطق السليم والصـلة بالواقع ٠ فى حـالة المرض العقلى يتوهم المريض أو يهلوس بقدر ما ذهب من عقله بعضه أو كـله ، كما يحدث فى بعض حالات مرض الفصام مثلا ٠

ونعنى بالمـرض العقـلى المـرض التقليـدى الذى يعـالج عادة فى عيادات ومستشفيات الأمراض العقليـة ٠ والأمراض العقلية أمراض « فردية » أى أنها تصيب انسانا بعينه ولا تتعداه الى آخر ٠ هذه الأمراض العقلية الفردية نادرة الحدوث فى المجتمعات ، اذ لا يتعدى نسبة حدوثهـا فى أى مجتمع عن الواحد أو اثنين ، أو ثلاثة على الأكثر فى بعض المجتمعات ، فى المائة ٠ وعلى هذا يقدر عدد المرضى العقليين فى جمهورية مصر العربية ، ٥٢ مليـون نسمة ، بنصف مليون مريضا عقليا ٠

أما الجنون العام ، وهو ما نقصر حديثنا عليه فى هذا المقـال ، فهو « اتجاه » أو « تصرفـات » أو« سلوك » يأتيه أفراد أو جماعة أو شـلة أو حزب أو طبقة اجتماعيـة أو مجتمع بأكمله فى زمن أو حقبة أو عصر ٠

ويمكننا أن نقول ، بحق ، أن الجنون العام موجود فى كل زمان ومكان ٠

وقد يدرك الجنون العام على أنه من الرذائل ، ولكنه في وقته لا يحس أو يحدد أو يمكن تعريفه بوضوح ، الا اذا نظر اليه فيما بعد فنقول ، كان ذلك جنونا ، أو نوعا من الجنون ·

ولما كان ادراك ما هو الجنون العام قد يكون صعبا على القارىء ، فانى أستمهله حتى يستخلصه من سياق ما سيلى من شرح ·

من أمثلة الجنون العام المعاصر ، ولن تعوذنا الأمثلة ، التسابق على التسلح وخاصة النووى ، والحروب الاقليمية المشتعلة هنا وهناك فى العالم بحجة آيديولوجية أو عقائدية دينية أو حجج أخرى ، كالحروب فى لبنان والخليج العربى وجنوب شرق آسيا ·

وعلى الصعيد المحلى فى مصر ، جنون كرة القدم ، والدروس الخصوصية خاصة فى الثانوية العامة ،واللامبالاه واللاجدية ، وغيرها ·

نعنى بالجنون العام التصرفات الناتجة عن التهور ، عدم التبصر فى عواقب الأمور ، المخاطرة فى غير موضعها والمقامرة بالنفس، عدم النضوج والاظلام والقصور الفكرى ، بحيث يرى المجنون جنونا عاما الأشياء على حقيقتها ، بعكس المريض عقليا، ولكنه يدركها بعقليته هو وتركيبته النفسية في ذلك الوقت ·

من أمثلة الجنون العام السلوك غير المألوف لمجتمع ما عند مجتمع آخر ، كنا نصف الانجليز فى بلادنا أيام الاحتلال البريطانى لمصر بأنهم مجانين ، ومازال الانجليز يعتبرون بعض تصرفات الأمريكيين بأنها نوع من الجنون العام · ومن

أنواع الجنون العام السلوك ضد المجتمع من بعض أفراد في ذلك المجتمع ، كاللجوء الى الزوغ ، والزيف ، والغش والخداع ، واللف والدوران لبلوغ الهدف · ومنه أيضا ، القسوة ، والقهر ، الجحود (عض اليد التى أحسنت الى الجاحد) لداعى هذه الخصال غير الحميدة (الرذيلة) لاعتقاد المجنون جنونا عاما أنها ستعود عليه بالنفع ـ وقد تعود عليه بالنفع ، ولكن أى نفع ؟ ـ نفع الى حين ·

وقد توصف تصرفات أطفالنا بالجنون العام الى سن الثامنة عشر ، لكونها غير ناضجة أو متوافقة · ولكننا نتغاضى عادة عن تصرفات صغارنا لصالحهم ومستقبلهم ، وصالحنا·

ومن الجنون العام تصرفات المدمن على المخدرات الى أن يقلع عن ادمانه ·

مثل الجنون العام بالنسبة الى العقل (التعقل) كمثل القصور (الفجاجة) الى النضوج الفكرى ، الغبش فى الفجر الى الوضوح فى النهار ، الشر الى الخير ، والفجور الى التقوى·

ولا يوجد حد فاصل بين الجنون العام والعقل ، بمعنى متى يتوقف العقل ليبدأ الجنون العام ، وقد يمتزج العقل بالجنون العام فنلمس فى هذه الحالات جنونا فيه تعقل ، كما نجد تعقلا فيه جنون ·قال الشاعر الانجليزى شيكسبير على لسان « هاملت » فى الرواية المعروفة « هاملت » ويعتقد أن هاملت كان مصابا بنوع من الجنون العام :

« وان كان هذا جنونا الا أن فيه تعقلا » ·

ولا يوجد انفصام بين الجنون العام والجريمة · اذ يعتبر الكثير المجرمين بعامة مجانين ، وهناك من يعتبرون الجنون العام فى أغلب الأحيان شكل من أشكال الاجرام · يقول علماء

الجريمة والقانون ، « فى كل انسان حبة من جريمة ، وحبة من جنون » . ويقصدون الجنون العام .

كلما قرأت عن العصور الوسطى بدت لى أكثر اظلاما ، وأشد قسوة ووحشية ، وجنونا عاما من العصور القديمة والحديثة . ولعل ذلك غير صحيح تماما ويعود الى الأسباب التالية :

أولا ، لما كانت العصور الوسطى أقرب الينا من العصور القديمة ، فاننا لذلك نكون قد قرأنا عن العصور الوسطى أكثر لوفرة ما كتب عنهـا بالنسبة الى ما كتب عن العصور القديمة . ربما كل ما يعرفه مثقفوا هذه الأيام عن العصور القديمة هو اهتـداء النـاس الى الأديان ، ثم نزول الأديان السماوية .

وهناك ما نعرفه عن فلسفة الاغريق العظيمة ، وحضارة الدولتين الرومانية والفارسية الكبيرة .

ثانيا : لقد بعد ما بيننا وبين العصـور القديمـة ، التى انتهت بقيام الامبراطورية العربية الاسـلامية ، حتى اننا فقدنا الصلة بها . فمثلا ، نحن سلالة الفراعنة ، بناة الأهرام ، لكننا لا نتـكلم لغتهم أو ندين بدينهم ، ولا نعيش مثلهم ولا نعرف الكثير عن حياتهم الاجتماعية .

بينما يكفى أن ينتقل الـواحد منا خطـوات الى قاهرة الفاطميين ، ويمشى فى دروب ومسالك شارع المعز لدين الله الفاطمى (حيث حى سيدنا الحسين والصـاغة) الآن حتى يشعر ، من كثرة ما قرأ عن تلك الأيام من عديد من المؤرخين، كأنه يعيش مع شعب الحـاكم بأمر الله والسلاطين بيبرس وقلاوون وبرقوق ويرى نفسه فى آيامهم . يدخل بيـوتهم

التى مازالت قائمة الى الآن ، ومازال يسكنها الكثيرون من مواطنى اليوم، ويصلى فى جوامعهم العظيمة البناء كما كانوا يصلون • ويتكلم مثلهم ، ولكن والحمد لله لا يفكر مثلهم •

انتهت العصور الوسطى فى أوروبا فى القرن السادس عشر ، ولكنها تأخرت فى بلاد الشرق الأوسط الى منتصف القرن التاسع عشر ، أى بعد الغرب بثلاثة قرون ونصف •

ثالثا : لا شك أننا فىالعصور الحديثة أكثر رقيا وتنورا وانطلاقا من شعوب العصور التى سبقتنا ، فهـل نحن أقل جنونا عاما ؟

فى العصور الوسطى كانوا يقتلون أعداءهم السياسيين والخاطئين دينيا بصلبهم ثم حرقهم وهم أحياء • وفى أيامنا هذه نحن نقتل أعداءنا بحرقهم بقاذفات اللهب (النابال) فى الحروب •

قال الاسرائيليون للمصريين أثنـاء ما يدعى بحـرب الاستنزاف ، من ١٩٦٨ ـ ١٩٧٣ •

« اذا حاولتم عبور القناة ، تحول الممر المائى بطوله الى شعلة من نار النابالم • ستموتون حرقا على صفحة قنالكم! »

كان التتار ، المغول ، فى القرن الثالث عشر اذا استولوا على بلدة أخرجوا أهلها جميعا الى الفضاء المجاور ، ثم تدك المدينة بالأرض دكا فلا يبقى منها أثر ، وبعد ذلك يتحولون الى الأهالى فيقتلوهم عن آخرهم • هكذا محا التتار الهمجيين فى زحفهم المدمر نحو الجنوب والغرب من أصل بلادهم شمال الصين كل بلاد فارس الى الهند ، ثم تحولوا الى العراق حيث مدينة بغداد ، أم الدنيا ، فمحوها بأهلها فى اسبوع واحد من فبراير سنة ١٢٥٨م بعد أن استولوا عـلى كنـوز الخلفاء

العباسيين التى جمعوها فى خمسة قرون · ومن بغداد تحول الجراد المنتشر نحو الغرب لغزو سوريا ومصر ·

فى مايو ١٩٤٥ ، أى بعد سبعة قرون من هوجة التتار فى وسط آسيا ، محت الولايات المتحدة الأمريكية ، أكثر أمم العالم قوة وتحضرا ، فى ثوان مدينتى هيروشيما ناكازاكى فى اليابان بقنبلتين ذريتين · كان عــدد ســكان المدينتين ستمائة ألف نسمة ، قتل منهم فى الحال حوالى الثلث ، ونصف هذا العدد مات موتا بطيئا فيما بعد بفعل الاشعاع الذرى ·· موتا بطيئا أليما ·

كانت حجة الأمريكان فى هذا العمل الجنونى هى ردع اليابانيين ليستسلموا فتحقن بذلك مزيد من الدماء ، دماء الأمريكان · وكان الوسيلة البشعة بررت الغاية السعيدة ، محا الامريكيون مدينتين بأكملهما ليثبتوا للعالم عظم قوتهم، لينهوا حربا دامت ست سنوات قتل فيهــا خمســون مليونا أكثرهم بكثير من سكان المدن الآمنين لا الجنود المتحاربين ·

خمسون مليونا من البشر قتلوا فى ست سنوات ، بواقع ثمانية وثلث مليون انسانا كل سنة ، أليس هــذا جنــونا عاما ؟!

والسؤال هــو :

لماذا لا نرى ما نحن عليــه من جنــون عام بينما نراه واضحا فى الذين سبقونا فى الأزمنة السابقة ؟

والاجابة على هذا السؤال تكمن فى السؤال نفسه :

لأننا بطبيعتنا نرى ما عليــه غيرنا ولا نرى ما عليــه أنفسنا ·

ولا ندرى ، طبعا ، ما سيقوله عنا كتاب العصور الآتية بعد ألف عام مثلا !

منذ بضع سنوات فقط ، فى أوائل الثمانينات ، قتل أهل قرية ، الواقع مستعمرة ، فى أمريكا الجنوبية أنفسهم جميعا ، انتحروا ، بعد أن قتلوا أطفالهم وصغارهم • وكانت تلك الفعلة البشعة ، الانتحار الجماعى ، بناء على أمر من الزعيم الروحى والدينى لتلك المستعمرة • لماذا ؟ لتدخل الكونجرس الأمريكى ، فى رأى الزعيم ، فى شؤون رعيته !

انتشر فى أواخر القرن الماضى فى فرنسا، وفى باريس بالذات ، جنون على شكل وباء بين النساء أكثر من الرجال ، ويظن الآن أنه كان نوعا من أنواع الهستيريا الجماعية بسبب أعراضه العضوية النفسية ، مما دعى الطبيب الأشهر « شاركو » الى التخصص فى هذا الجنون العام •

انتهى ذلك الجنون بحلول القرن العشرين كما بدأ ، ولا أحدا يدرى الى الآن سببه وكيف بدأ وانتهى •

فى الخمسينات من هذا القرن قامت فى غرب الولايات المتحدة الامريكية حركة بين الشباب تدعى حركة « الهيبز » (هيبى يعنى شاب) وفحواها :

« نحن لا نؤمن بما يقوله الكبار لنا ولكن نؤمن فقط بأنفسنا • لن ألبس مثل ما يلبس أبى ، ولن أعمل ما يعمل فعمله لم يؤد به الى السعادة ، وأنا أريد السعادة لنفسى وغيرى من الشباب » •

ولم يقل أولئك الشباب ماذا هم فاعلون ، أو قالوا ولم يلتفت اليهم أحد من الكبار • ثم انتشرت حركة الهيبز فى جميع أنحاء العالم الغربى • ولكن كما فى كل مد جنونى ،

انحسر كما بدأ ، وانتهى لتبدأ حركات جنونية أخرى بين الشباب كحركات « البنك » و « الرؤوس الجلدية » ٠٠ وما سيجيء ٠ في الستينات ، بعد أن اطمأن الناس الى فاعلية وسائل منع الحمل ، اجتاحت العالم الغربي ، ورائدته أمريكا ، موجة من الجنون الجنسي ٠ وكانت الصيحة تنادي :

« الجنس لداعي الجنس فقط ٠ تحيا الليبرالية (الاباحية) في الجنس وليسقط الحب والزواج » ٠

والآن ، منذ ثلاث سنوات ، توجد حركة مضادة لهذا الاتجاه الجنوني ، اذ يجتاح العالم جنون « العفة » خوفا من الموت بمرض الايدز ٠

لا شك أننا ورثنا الجنون العام عن أسلافنا ٠ قال الفليسوف نيتشه :

« ليست حكمة العصور وحدها التي تجري فينا ، بل وأيضا جنون تلك العصور ٠ ما أخطر أن تكون وريثا ٠

وذهب بسكال الى أبعد من هذا فقال :

« الناس مجانين بالضرورة ، أما كونهم غير مجانين فهذه صورة أخرى من صور الجنون » ٠

ويعني بسكال أن في قبول الانسان لوجوده والاستسلام له نوعا من أنواع الجنون العام ٠ ولا على القارىء من كلام الفلاسفة ٠

قبل أن أنتهي مما أعني بالجنون العام ، عسى أن يكون القارىء قد ألم بما عنيت ، أحب أن أفسر نقطة أخيرة :

ما هو العمر العقلى :

لكل مخلوقات الله عمر واحد ، العمر الزمنى ، الا الانسان فله عمران ، العمر الزمنى والعمر العقلى ٠ العمر الزمنى يساوى عدد السنين التى يعيشها الانسان ، أو الحيوان ، منذ ولادته الى وفاته ٠ نقول أن متوسط عمر الانسان فى هذه الأيام هو سبعة وخمسين عاما ٠

العمر العقلى يساوى ما وصل اليه عقل انسان من نضوج ورقى ٠ وبديهى أن العمر العقلى اصطلاح مجازى ، لا يقاس بالسنين ، وانما ببعدالعقل عن الرذائل وقربه من الفضائل٠ ترى كم يقدر العمر العقلى للأنبياء عليهم السلام وقادة الرأى والزعماء ؟ كم كان العمر العقلى لسعد باشا زغلول ولطفى السيد وطه حسين ، على سبيل المثال لا الحصر ؟

العمر العقلى هدف يرجى ويسعى اليه لكى نصل به الى الانسان الفاضل ، وقد نصل أو لا نصل ٠

هناك أناس أرقى بعمرهم العقلى ، أو أدنى ، ممن يساونهم فى العمر الزمنى ، وأناس وصلوا بعمرهم العقلى شأوا بعيدا بالمقارنة الى عمرهم الزمنى ٠ وأناس يعتبروا « أطفال » بالنسبة الى عمرهم العقلى بينما هم كهول أو شيوخ بعمرهم الزمنى ٠ هناك بصرف النظر عن العمر الزمنى للانسان الانسان الراقى والأقل رقيا الى الانسان الأقرب الى البدائى الى البدائى ٠

هناك ، كما قلت : الانسان القريب من الحيوان العاقل والانسان الفاضل ٠

ولا أعنى بالرقى الحضارة ، وان كان هذا بعضا من

الرقى ، كما أن للوراثة دخل كبير فى رقى العقــل يتبعهــا بدرجات أقل التربية والتعليم والتثقيف ٠

لما كانت الشعوب تتكون من أفراد ، فهناك شعوب أرقى من شعوب ٠ ولا دخل لعامل الزمن فى رقى هذه الشعوب ، ولا يقاس رقى شعب بعمره الزمنى ، أى عدد السنين التى عاشها على الأرض ٠ أنظــر الى المصريين ، عمرهم الزمنى أكبر بكثير جدا من عمر شــعوب أكثر منهم رقيــا بعمرهم العقلى ٠ ويلاحظ أننا اذا تكلمنا عن شعب فاننا نتكلم عنــه ككل لا كأفراد ٠

مهما قيل عن الشعوب الراقية ، وهى فى نفس الوقت متقدمة ، تجريحا لها وشعورا بالنقص من الشعوب النامية ، الأقل عمرا عقــليا ، من نقص فى الفضــائل مع وفرة فى الرذائل بصرف النظر عن التقدم العلمى والأدبى والتكنولوجى فهذا وهم كبير وهراء ، لأن الشــعوب الراقية لا ينقصــها الفضائل ، والا لما كانت راقية ٠

فمثلا ، كان الفرنسيون منذ الثورة الفرنسية (١٧٨٩) يقتلون المجرمين بقطع رقابهم بالمقصلة ، الجيلوتين ٠ وفى سنة ١٧٩٩ قتل الفرنسيون الطالب ســليمان الحلبى الذى اغتال قائد جيش الاحتلال الفرنسى لمصر الجنرال « كليبر » بعد محاكمة عادلة ، عدلهم ، بأن وضعوا جسم الحلبى عــلى « الخازوق » فدخل من أسفله وخرج من أعلاه ٠ ألا تعتبر هذه الطرق فى معاقبة المجرمين قاسية ووحشية ؟ أما فى هذه الأيام ، منذ أوائل الستينات ، فان الفرنسيين ومعظم العالم الغربى قد أوقفوا عقوبة الاعدام بأى شــكل فى بلادهم ٠ حاول البعض فى بريطانيا فى أوائل الثمانينات اعادة عقوبة

الاعدام ولكن مجلس العموم البريطانى رفض وأصر على عدم اعادة العقوبة التى ألغيت لأنها بشعة .

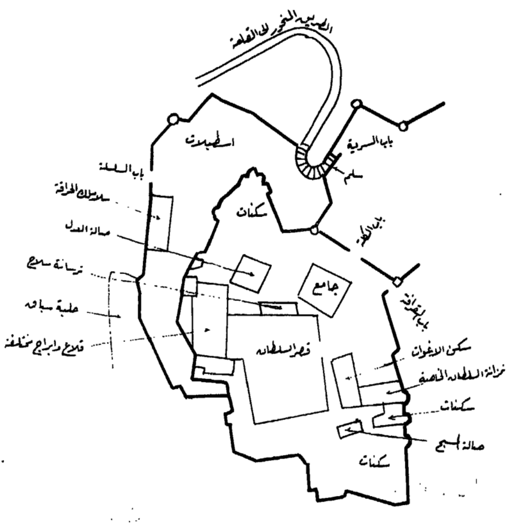
وتفسير ذلك أن عقل العالم الغربى قد ارتقى ولم يرتض لنفسه الانتقام من القتلة بقتلهم فيكون قاتلا مثلهم . أخذ الغربيون بمبدأ العقاب للردع لا للانتقام والقهر . ولم ترتفع نسبة جرائم القتل العمد فى العالم الغربى بعد الغاء عقوبة الاعدام عما كانت عليه قبل الغائها . ترى متى تلغى عقوبة الاعدام البشعة فى بلادنا ؟

عودة الى عصر المماليك لندرس ظاهرة الجنون العام :

المملوك والنخاس والسلطان :

كان يجب على المملوك ليصبح سلطانا أن « يمسه النخاس » ، أى يبيعه النخاس الى السلطان ، والا ما كان مملوكا سلطانيا ولما صار فيما بعد سلطانا . ولم يكن نظام الوراثة معروفا عند المماليك الا فى حالات نادرة أثبتت القاعدة .

السلطان يشترى المماليك الصبيان من النخاس، وكانوا يدعون « الجلبان » ، يربيهم ويعلمهم ليصبحوا جنودا لجيشه وحرسه الخاص الذى يحميه من أعدائه فى الداخل والخارج . كان أحد السلاطين يحرسه ألف مملوك أثناء نومه بالليل . هؤلاء الجلبان أطلق عليهم لفظ « المماليك السلطانية » ، ومنهم وليس من أحد غيرهم يكون السلطان اذا مات أو أغتيل السلطان .



وكان جيش المماليك يتكون من الفئات التالية :

١ ــ المماليك السلطانية ، وهم الجلبان الذين يشتريهم السلطان من النخاسين فى أسواق الرقيق الأبيض ، ومنهم تتكون صفوة الجيش المماليكى لحسن تدريبهم على فنون القتال • عادة ، حينما يشترى يكون المملوك السلطانى فى السابعة من عمره ، ويكون ولاءه للسلطان الذى اشتراه وحده طول حياة السلطان ، فاذا مات أو أغتيل السلطان أصبح المملوك حرا وله أن يفعل ما يشاء •

٢ ـ أمراء المماليك ، ويتكون منهم قادة الجيش على اختلاف درجاتهم ، وهم عادة كانوا مماليك لسلطان سابق ، أى كانوا مماليك سلطانية •

٣ ـ أولاد النــاس ، وهم أولاد المماليك الذين ولدوا وترعرعوا فى مصر ، قد ينضموا الى سلك الجندية ليكونوا جيشا احتياطيا اذا دعى الأمر ، أو يفعلوا ما يشاؤون من أعمال مدنية •

ولم يكن التزاوج بين الممــاليك والمصريين موجودا الا فى حالات خاصة نادرة •

كان على المملوك اذا شاء أن يكون سلطانا فى المستقبل، بالانتخاب من المماليك السلطانية وأمراء المماليك ، ســواء بقتل السلطان أو بعد وفاة السلطان ، أن يثبت للجميع وقد ترقى فى الجيش الى أن أصبح قائدا أنه أقدر من أقرانه فى فنون الحرب والقتال ، والسياسة والادارة ، وأن له شخصية داهية مسيطرة ، ويجيد حبك الدسائس والمؤامرات ، قوى الشكيمة قادرا على احتواء المواقف الحرجة • من هؤلاء جميعا على سبيل المثال :

١ ـ الظاهر بيبرس البندقدارى	١٢٦٠ ـ ١٢٧٧	=١٧ سنة
٢ ـ المنصور قلاوون	١٢٧٩ ـ ١٢٩٠	= ١١ سنة
٣ ـ الأشرف شعبان	١٣٦٣ ـ ١٣٧٧	= ١٤ سنة
٤ ـ الأشرف بارسباى	١٤٢٢ ـ ١٤٣٨	= ١٦ سنة
٥ ـ الظاهر جقمق	١٤٣٨ ـ ١٤٥٣	= ١٥ سنة
٦ ـ الأشرف قايتباى	١٤٦٨ ـ ١٤٩٦	= ٢٨ سنة
٧ ـ الأشرف قنصوة الغورى	١٥٠١ ـ ١٥١٦	= ١٥ سنة

في دولة المماليك الأولى والثا نية ، ٢٥٧ سنة ، حكم مصر والشام ٥٤ سلطــانا بواقع ٣/٤ ٤ سنة لكل سلطــان ٠ والواقع لم يكن كذلك ، فقد كان هناك عهود أمن واستقرار ورخاء ، تخللها عهود فوضى وتدهور وآوبئة ومجاعات وسلب ونهب من صغار المماليك ١٨٠ سلطانا استمر حكمهم المستقر ٢٢٢ سنة ، وكان متوسط حكم السلطان ١/٣ ١٢ سنة ٠ من هؤلاء بيبرس ، وقلاوون ، وابنه الناصر محمد بن قلاوون (من القلائل الذين ورثوا السلطنة واستمر حكمه ٤٨ سنة) ٠٠ والواقع أن السلطان الناصر وضع الأسس العامة لسياسة المماليك ورفع من شأن هذه الدولة ، وذلك بفضل سداد رأيه وقوة بأسه ومباشرته أمور الدولة بنفسه ٠٠) وبرقوق ، وفرج ، ومؤيد شيخ ، وجقمق ، وقشقدم (ويقال آن أصله كان ألمانيا ، أى انه كان من المماليك الصــقالبة ــ الرقيق الأوروبى ــ فلم يكن تركيا آو شركسيا) وقنصوة الغورى ٠

حكم فى عهود الفوضى وعدم الاستقرار ٣٦ ســلطانا بواقع سلطــان كل ١/٣ ١ سنة ، وآحــد السلاطين حكم ليلة واحدة فسمى لذلك سلطان الليلة ! ولكن حكم المماليك كله ، سواء المستقر أو الفوضوى ، اتصف كما سنرى مثلا له فيما بعد بالجنون العام ٠

وضع المماليك نصب آعينهم آن يحكموا مصر ويستفيدوا من ثرائها العريض مع المحافظة على وجودها فلا تستهلك منهم فتمــوت ، أو تضيع منهم فيموتون هم ٠ وكانــوا فى ذلك أذكياء متضامنون حقا ٠ لم يغرهم صــعودهم الى مســتوى السلاطين وحكم أغنى منطقة فى الشرق الأوســط ، مصر والشام ، فتوسعوا خارج ملكهم كما فعل التتــار وكان فى

امكانهم بسهولة فعل ذلك ، وحينئذ كانت ستضعف قوتهم كما ضعفت قوة التتار فينتهون ·

قسم المماليك أرض مصر الى ٢٤ قيراطا على النحو التالى :

١ ــ ٤ قراريط للسلطان ، وكانت بداهة من أجود الأراضى ·

٢ ــ ١٠ قراريط للمماليك السلطانية ·

٣ ــ ١٠ قراريط لأمراء المماليك وما يتبعهم من جند·

وكان المزارعون فى الريف ، الفلاحون ، ملزمون فى كل زمام بالتضامن بتأدية المحصول الى المملوك رئيس الزمام الذى يعين على الزمام من قبل ديوان الجيش المماليكى ·

أما أهل المدن ، وكانوا فى غالبيتهم من التجار وأصحاب الحوانيت ، فكانوا يؤدون الضرائب للملتزم على تجارتهم وعقاراتهم وأمنهم على بضاعتهم أثناء نقلها من مكان الى آخر ، كانت هذه تعرف بضريبة المكوس ·

ولا ننسى دخل المماليك من تجارة الهند وشرق آسيا ، الترانسيت ، المارة عبر مصر الآمنة القوية الى أوروبا · كان فى مدن مصر الكبرى ، بفضل تجارة الترانسيت وغيرها ــ الجزية للسلطان من الولاة التابعين له فى الشام واليمن والحجاز وبرقة والنوبة ــ من مظاهر العز والبذخ الشيىء الكثير ، حتى أن القاهرة وصفت فى عهد المماليك بما يقرب من وصف بغداد أيام عز العباسيين ·

وصف عام لحكم المماليك :

لم يكن المماليك فى الأصل مسـلمين ، وكان الاسـلام جديدا عليهم ، لذلك غالوا فى اسلامهم عندما اعتنقوه وهم صبية فى سن العاشرة ، وأصبحوا فيما بعد فى الظاهر أشد وأظهر اسلاما من المسلمين الذين سبقوهم الى الاسلام منـذ ستة قرون . هذا يفسر لنا عظمة جوامعهم الموجودة الآن فى القاهرة والمدارس السنية المـذهب ، « ... ولم تخـرج مدارسهم عن كنونها مساجدا .. » .

أما سوى ذلك فيمكن وصف حكمهم ، ليحافظوا عـلى ملكهم ، بالقسوة ، والقهر ، والاحباط ، والدمار لـكل من عارضهم وزاحمهم فى ملكهم . كانوا اذا تعرض لهم العربان (سكان مصر من العرب وكانوا يطالبون بأحقيتهم فى حكم مصر) أرسلوا فرقهم المدربة تدريبا عاليا على القتال فيمحوا معارضيهم عن آخرهم الا من لاذ منهم بالفرار حتى لا تقـوم لهم قائمة فيما بعد ، وذلك رجالا ونساء وأطفالا . ومع ذلك كان يفر أمام هجومهم المدمر الكثير من الأعراب ليعاودوا محاربتهم بعد أن يستقلوا بأرضهم عن سيطرة السلطان . هنا يلجأ المماليك الى الخداع كما فى القصة التالية المسماة بـ « حركة فساد العربان » ، فساد يعنى ثورة وخروج عن النظام :

« ... لما اشتد القتل والقتال على العربان فى صعيد مصر ، فروا أمام بأس المماليك طالبين النجـاة وانتشروا جنوبا . ثم أرسل زعمـاء العـربان الى السـلطان يطلبون الصلح . سمح لهم السلطان بمقابلته للتفـاوض معهم فى مكان قرب الصالحية فى شرق الدلتا ، وما ان اقترب مشايخ

القبائل من خيام المعسكر السلطانى حتى انقض عليهم المماليك فأفنوهم عن آخرهم ٠٠ »

كان من وسائل الردع والتعذيب الكثيرة عند المماليك ، سلخ جلد الانسان وهو حى ، قطعه من منتصفه عند الوسط، وهذه الطريقة البشعة فى القتل كانت تدعى بالتوسيط ، وقطع الرؤوس وتعليقها على الأعمدة فى الساحات أمام أبواب المدينة ، أو تعليق رؤوس القتلى من رقاب زوجاتهم ، شد أعضاء جسم الانسان وهو حى على آلة « الدولاب » حتى تتمزق أطرافه فيموت من الالم والصدمة العصبية ، الى غير ذلك من الوسائل البشعة فى التعذيب والقتل والتى كانت متبعة فى بلاد أخرى فى العصور الوسطى ٠

وكان للمماليك سجون يسجنون فيها الخارجين على القانون ، وليس عليهم ، من الاهالى والعامة ٠

وكان العامة يفضلون الموت على دخول السجن ، وغالبا ما كانوا يموتون فيه من الجوع والأمراض ٠

مثال للجنون العام أثناء حكم المماليك :

فى العشر سنوات الأولى من حكم المماليك ، وقس على هذا بقية حكمهم بلا استثناء ، حدثت الأحداث التالية :

١ ــ شجر الدر دبرت مع قائد المماليك البحرية ، الظاهر بيبرس ، لقتل السلطان الشرعى « توران شاه » ابن زوجها المتوفى السلطان الصالح أيوب ، وكان أن قتل توران شاه بعد موقعة المنصورة مع الفرنسيين حتى تتولى شجر الدر حكم مصر سنة ١٢٥٠ م ٠

٢ ــ السلطان المعز أيبك زوج شجر الدر شريكته فى

الحكم دبر وقتل قائد جنده « اقطـاى » فى القلعة ، وكان قائد الجند اقتاى يتربص للسلطان أيبك ليقتله ليستولى على الحكم سنة ١٢٥٤م ٠

٣ ـ شجر الدر قتلت زوجهـا وشريكهـا فى الحـكم المعز أيبك سنة ١٢٥٧م ٠

٤ ـ زوجة المعز أيبك الأولى انتقمت لنفسها وزوجها فقتلت شجر الدر سنة ١٢٥٧م ٠

٥ ـ القائد بيبرس قتل السلطان « قطز » واسـتولى على الحكم سنة ١٢٦٠م ٠

عشر سنوات من الجنون العام ، من ١٢٥٠ الى ١٢٦٠ ، شهدتها مصر امتلأت بالمؤامرات والقتل ٠

ستة من أولى الأمر تطاحنوا وتآمروا وتسابقوا للفوز بعرش سلطنة مصر ، قتلوا فيما بينهم خمسة وفاز السادس، بيبرس ، فى النهاية ، وكأنهم كانوا يتسابقون عـلى لعبـة « الـكراسى الموسـيقية » ٠ فاز أكثرهم دهاء ، ومكـرا ، وصبرا ، وقسوة ، ووحشية ، افتنانا (جنونا عاما) بالحكم والسلطان ٠

تعال معى عزيزى القارىء نقرأ معا كتب التاريخ ٠٠ وسنجد فيها درسا ، وعظة ، وعبرة ٠

كانت شجر الدر ، المعروفة لدى العامة فى مصر باسم شجرة الدر ، جارية تركية للخليفة العباسى المستعصم أهداها الى السلطان الصالح أيوب آخر السلاطين الأيوبيين ٠ والصالح أيوب هو الذى أنشـأ المماليك البحرية ومنهم كان بيبرس البندقدارى الظاهرى ٠ أحب الصالح أيـوب شـجر الدر لجمالها وشبابها وذكائها وحسن شمائلها فتزوجها على زوجته

الأولى . استوعبت شجر الدر فنون السياسة وأصول الحكم من منابعها ، سواء فى قصر الخليفة فى بغداد أو فى قصر السلطان فى القاهرة ، وبديهى أيضا أن تتعلم المقالب والخدع والمؤامرات . وسرعان ما أصبحت فى بلاط الصالح أيوب الكل فى الكل مما أثار حفيظة زوجته الأولى عليها .

فى أواخر أيامه ، أصيب الصالح أيوب بمرض السل الرئوى ومع ذلك استمر نشطا مسيطرا الى آن هده المرض أثناء استعداده لحرب لويس التاسع قرب المنصورة سنة ١٢٤٩ م . ولكنه مات قبل نشوب المعركة التى انتصر فيها المماليك على الفرنسيين انتصارا ساحقا ، مات فى خيمته بالمعسكر فى أحضان حبيبته شجر الدر .

هدى ذكاء شجرة الدر الى اخفاء خبر موت زوجها السلطان عن الجميع حتى لا يتأثر القواد والجند فيخسروا المعركة الفاصلة المرتقبة . وفعلا استمر قوادالجيش يترددون على خيمة القائد الأعلى السلطان لتلقى الأوامر ، فكانوا يتلقونها مكتوبة وممضاة بامضاءالقائد مزورة تزويرا متقنا بيد أحد الأغوات المخلصين لشجر الدر . الى آن اندحر جيش « الفرنجة » أمام بسالة وشجاعة المماليك ومن قوادهم كان الظاهر بيبرس الذى أثبت وجوده ومهارته فى القتال .

قبل وفاة الصالح أيوب بشهرين أرسلت شجر الدر الى ابنه وولى عهده « توران شاه » وكان فى سوريا تخبره بمرض أبيه وليتهيأ لاستلام عرش مصر والشام . كان توران شاه شابا أرعنا متهورا ، كارها لقواد المماليك البحرية مما أفقده عطفهم . طالب توران شاه بعد انتهاء معركة المنصورة شجر الدر بتسليمه ثروة أبيه الصالح أيوب ، فأجابته بأن الثورة تبخرت فى المعركة والاستعداد لها ،

فاتهمها بأنها أخفت ثروة أبيه عنه مستأثرة بها لنفسها ، مما أوجد حفيظة شجر الدر أيضا عليه فدبرت مع المماليك البحرية لقتله والتخلص منه ٠

سرعان ما وأتت الفكرة الجنونية ، جنون السلطة ، شجر الدر ، لماذا لا تكون هي نفسها سلطانا على عرش مصر والشام ؟ وفعلا ، ما آن انتهت موقعة المنصورة وخرج الفرنجة مدحورين من مصر حتى اجتمع المماليك البحرية السلطانية ، وكان منهم بيبرس ، محتفظين بولائهم للصالح أيوب الذى اشتراهم ورباهم وعلمهم ، وقرروا بالاشتراك مع أمراء المماليك على انتخاب شجر الدر سلطانا بعد زوجها الراحل الصالح أيوب ، وأرسلوا بالخبر الى الخليفة فى بغداد ٠

استشاط الخليفة فى بغداد غضبا لما علم بالخبر ، وكان رجلا مستضعفا سرعان ما لقى حتفه على يد حراسه ، وكانت للخليفة الزعامة الروحية والدينية فقط فأرسل الى قلعة الجبل حيث مقر الحكم فى القاهرة يقول :

« ٠٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا خير فى أمة تحكمها امرأة ٠ اذا لم يوجد عندكم رجال يصلحون للحكم أرسلنا لكم واحدا » ٠٠

بهذا التوبيخ من الخليفة فى بغداد رؤى تعديل الخطة فى القاهرة ٠ نودى بقائد الجند المعز أيبك سلطانا على مصر بدلا من شجر الدر ٠ ولاكساب حكم أيبك روح من الشرعية الأيوبية جعل أيبك وصيا على حفيد السلطان الأيوبى الكامل الأشرف موسى وكان عمره حينذاك ست سنوات ٠ وتزوج أيبك بشجر الدر وجعل منها شريكته فى الحكم حتى يكسب رضاء الجميع ٠

كانت الحكومة فى عهد المماليك تنقسم الى قسمين :

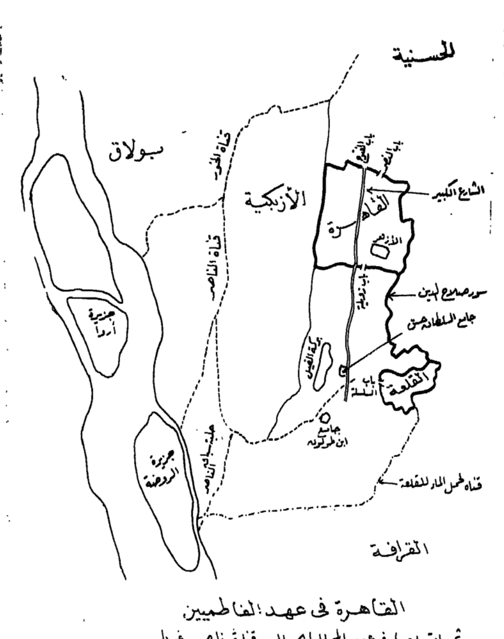
١ ــ أرباب السيف ، وهم المماليك ، ولهم الكلمة العليا والدفاع عن البلاد •

٢ ــ أرباب القلم ، وهم من الشعب ، ومنهم الوزير ، ورئيس القضاة ، والقضاة الأربع (ممثلين للمذاهب الأربعة المالكى والشافعى والحنفى والحنبلى) ثم العلماء والكتاب ومن فى حكمهم • وكان لكل وظيفة لباس رسمى خاص بها •

الظاهر ، وربما كان هو الواقع ، أن آيبك وشجر الدر تقاسما الحكم والسلطة فيما بينهما ، على أن يكون أيبك على رأس أرباب السيف ، وشجر الدر تتـولى أرباب القلم •• أى التنفيذ •

واستمر هذا حالهما الى أن شاء آيبك أن يمد سلطانه الى الشام حيث كان الشام خاضعا للأيوبيين دون المماليك بتقسيم من الخليفة ، ويتزوج من الأيوبيين غادرا بشجر الدر • ازاء هذا الغدر تربصت شجر الدر بأيبك وقتلته ، بعـد حكم استمر سبع سنوات (من ١٢٥٠ الى ١٢٥٧) •

لا شك أن شجر الدر كانت ذات فكر مدبر ورأس عنيد• وكان فيها طباع المرأة الغيور الحقود • لما سجنت شجر الدر بسبب قتلها لأيبك ، جمعت كل جواهرها وحليها ودقتها فى « الهاون » الى أن جعلتها ترابا حتى لا ينتفع بها أحد بعدها وقد أوجست أن نهايتها قد قاربت • أدركها حقد وغيرة امرأة أخرى ، زوجة أيبك الأولى ، فقتلتها بعد شهرين من قتلهـا أيبك •



القاهرة فى عهد الفاطميين
ثم اتساعها فى عهد المماليك الى قناة ناصر غربا ، وسور صلاح الدين شرقا ، والحسينية شمالا وجنوب جامع ابن طولون جنوبا

يقول المؤرخ المقريزى :

« ... وكان أن انتقمت زوجة أيبك الأولى من شجر الدر ، لأخذها زوجها أيبك منها ثم قتله ، فقتلتها وهى فى الحمام بضربها مع الجوارى بالقباقيب على أم رأسها . وألقت بجثة شجر الدر من فوق سور القلعة وبقيت الجثة فى الخندق أسفل القلعة ثلاثة أيام حتى تعفنت . وأثناء وجود الجثة فى الخندق مر أحد العوام فأخذ تكة سروالها وتحزم به . الى أن جمعت الجثة فى قفة ودفنت فى قبر مجهول .. » .

ويقول المؤرخ القريزى فى معرض قتل السلطان المعز أيبك لقائد جنده اقطاى :

« ... دبر أيبك لقتل اقطاى مستعينا ببيبرس البندقدارى ، وكان اقطاى يتربص لأيبك ليقتله ويتولى هو على الحكم بدله . طلب أيبك من اقطاى المرور عليه فى القلعة للتشاور فى أمر هام ، وهناك قتل أيبك اقطاى .

ظن أمراء المماليك البحرية فى أول الأمر أن اقطاى قد « حجز » فى القلعة ، فتجمهروا على الطريق الصاعد الى القلعة ، وكان بينهم بيبرس، وطالبوا باطلاق سراح اقطاى. ولكنهم فوجئوا وذعروا عندما شاهدوا رأس اقطاى تتدحرج ناحيتهم على الطريق الهابط الى أن استقرت بين أقدامهم . هنا أدرك الجنود البحرية وقوادهم ألا عيش لهم ولا مكان فى مصر وفروا الى الشام واحتموا بسطوة الأيوبيين ... »

تم ظهر السلطان « قطز » على مسرح الأحداث وتولى حكم مصر احدى عشر شهرا ثم قتل على يد بيبرس وأعوانه . تعود شهرة قطز الى أنه أوقف زحف التتار على مصر ومنها الىالعالم

الغربى بعدما هزمهم فى موقعة «عين جالوت» جنوب فلسطين سنة ١٢٥٩ م • لكن قطز جوزى على بطولته بأن قتل قبل أن يصل الى القاهرة •

اختلف المؤرخون فى هل هم المماليك ، بقيادة قطز ومعاونه بيبرس ، الذين انقذوا مصر والعالم الغربى المتحضر من غزو التتار الهمج ، والذى بدأ من شمال الصين جنوبا وغربا ولم يتوقف الا فى عين جالوت •• أم أن زحف التتار المدمر نحو الغرب قد توقف بانتهاء قوة دافعيته (اندفاعه) • اذا المعروف عن الحركات الغازية المدمرة انها تبدأ قوية وكأنها كتلة صخر كبيرة دفع بها سيل جارف ثم تقل سرعتها الى أن تتوقف تلقائيا • خرج « جانكيزخان » على رأس قومه التتار غازيا نحو الجنوب من شمال غرب الصين، ثم أكمل الزحف حفيده « هولاكو ، ١٢٥٦ ـ ١٢٦٥ » الى أن احتل دمشق مرورا ببغداد ثم تبريز فى شمال العراق •

الواقع أن قطز وبيبرس لم يحاربا هولاكو وجيشه كاملا فى موقعة عين جالوت • اتضح أن هولاكو كان قد أخذ أكثر من نصف جيشه وعاد به الى مسقط رأسه ، تاركا باقى الجيش الذى أنهكه طول السير والاغارة على البلاد ، وأضناه البعد عن الأهل ، الى قائد جنده « كتبوجا » يدافع به عن سوريا ثم يغزو مصر • وكانت موقعة عين جالوت آخر غزوات التيتار وزحفهم غربا •

تعال نقرأ كيف قتل بيبرس قطز :

« ••• بينما كان السلطان المظفر قطز عائدا من الشام فى طريقه الى القاهرة بعد انتصاره العظيم فى موقعة عين

جالوت ، أراد أن يمضى وقتا كبيرا فى الصيد فى ناحية الصالحية قرب بلبيس · بعد الصيد عاد الجميع مرحين الى المعسكر ، قطز فى المقدمة وعلى يساره بيبرس وخلفهما الأمراء قائدى الجند · طلب بيبرس من قطز أن يهبه أسيرة جميلة من أسيرات الحرب ، وكان التتار ينتقلون من موقعة الى أخرى ومعهم نساءهم وأطفالهم ليكن النساء فى خدمة الجند ، أى أن القبيلة بأكملها كانت تنتقل مع الجيش ، ولبى السلطان طلب كبير قواده متفضلا مسرورا ·

بعد انتهاء الحرب بين المماليك والتتار فى الشام ووضوح الرؤية للمماليك فى حكم مصر والشام، كان بيبرس قد طلب من قطز أن يوليه نيابة حلب ، ولكن قطز رفض طلبه ليبقيه معه فى القاهرة حتى يأمن شر طموحه والانقلاب ضده · رأى السلطان أنه من الأفضل ابقاء رجلا مثل بيبرس بجانبه وتحت عينه عن أن يكون بعيدا عنه فلا يعرف ماذا يدبر له · كان بيبرس من المماليك البحرية أعداء قطز ·

وما أن وافق قطز على منح الأسيرة الجميلة الى بيبرس حتى قفز بيبرس مظهرا شدة فرحه من على حصانه وأمسك بيدى قطز وانهال عليهما تقبيلا · ولم تكن حركة القفز من فوق ظهر الحصان وتقبيل اليدين الا اشارة من بيبرس الى زملائه الامراء « خشداشيته » ، زملائه فى السلاح اشتروا من سوق الرقيق معا ، للهجوم على قطز وقتله بينما بيبرس ممسكا بكلتا يديه فلم يستطع قطز الوصول بيده الى سيفه للدفاع عن نفسه ·

وكان أن قتل المملوك الطامع فى عرش السلطنة منذ أكثر من عشر سنوات ، بيبرس ، السلطان الذى سبقه الى السلطنة بأقل من عام ، قطز · ولو لم يقتل بيبرس قطز لكان

قطز قد قتله فى يوم قريب ، ولتغير وجه التاريخ الذى كان يحكمه حينئذ الجنون العام ٠

حينما تمت الفعلة جاء رئيس حرس السلطان وسأل :

ـ من قتل قطز ؟

وفى الحال أجات بيبرس بجرأة تليق به ٠

ـ أنا ٠

وهنا أجاب الجمع فى نفس واحد :

ـ اذن ، فأنت الذى يحل محله ٠

وأصبح ذلك تقليدا فيما بعد ، اذا قتل أمير الجند سلطانا حل محله على « دست السلطنة » ٠

رزق الهبل على المجانين ٠

من المعروف عن حركات الجنون العام فى التاريخ أن فئة قليلة ، أو شخصا ـكهتلر أو موسولينى ، تستفيد عادة من فئة كبيرة ٠ أو بلغة علم الاجتماع ، الخاصة تستفيد من العامة ٠

فى سنة ١٢٦١ م ، وقد استتب الأمر للسلطان الظاهر بيبرس ، وصل الى القلعة تقرير من دمشق يقول أن « جماعة » قدموا من الصحراء الشرقية يقولون ان معهم أحد سلالة الخلفاء العباسيين وقد نجا من القتل على يد التتار فى موقعة بغداد ، وانه عم الخليفة المعتصم الذى قتله حراسه فيمامضى ٠ عاش الخليفة المدعى ، وكان أسود اللون ، مع البدو الرحل سنتين مختفيا عن عيون التتار حتى لا يقتلوه ٠

وبمجرد اطلاع بيبرس على التقرير ، انتهزها فرصة وأمر بارسال الخليفة فى الحال فى موكب يليق به الى القاهرة • وما أن اقترب الموكب يتقدمه الخليفة من القاهرة حتى خرج السلطان بيبرس على رأس قوة عظيمة مصحوبا بالوزير ورئيس القضاة الأربعة والأمراء والأعيان والوجهاء لاستقبال القادم العظيم • اشترك فى الموكب المهيب المصاحب للسلطان يهود مصر وأقباطها ، اليهود حاملين آمامهم التوراة، والأقباط حاملين الانجيل •

تلاقى الموكبان خارج القاهرة ثم دخلاها من باب النصر وفى المقدمة الخليفة العباسى وعلى يساره السلطان • اخترق الموكب المهيب الشارع الكبير الى باب زويلة ومنه الى القلعة •

بعد أربعة أيام أقيم فى القصر السلطانى بالقلعة حفل استقبال كبير على شرف الخليفة العباسى حضره جميع رجال الدولة مرتدين أزياءهم الرسمية الدالة على كل فئة من ذوى السيف والقلم • استمع الجميع الى روآية الخليفة آولا والتى أثبت بها دعواه ، وشهد « آغا » من بغداد ، وبعض العربان من العراق ، والبدو الذين صاحبوا الخليفة عبر الصحراء الى دمشق • اتفق الجميع على أن المحتفى به الجالس آمام الجمع الموقر هو أمير المؤمنين الخليفة آحمد بن الظاهر العباسى •

وفى اثناء القاء الحجج والبراهين كان السلطان جالسا فى خشوع منصتا الى ما كان يدور من كلام الى آن قام قاضى القضاة واعترف رسميا بالخليفة ، وأصدر الفتوى الشرعية مثبتا وجود الخليفة فى القاهرة •

بذلك أكسب السلطان بيبرس ، ثانى سلاطين المماليك شرعيته الدينية • استمرت الخلافة العباسية اسما فى القاهرة الى أن سقطت القاهرة فى يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م ،

وهؤلاء تولوا الخلافه على المسلمين من العباسيين الى آن سقطت عنهم سنة ١٩٢٤ ٠

ويشك بعض المؤرخين فى علاقة العباسيين فى القاهرة بأسلافهم فى بغداد ٠

نهاية الجنون العام

ماسبق شرحه بايجاز انما هو عشر سنوات فقط من حكم المماليك الذى استمر على هذا المنوال لا يتغير أو يتبدل كثيرا لمدة ٢٥٧ سنة ٠ كانوا دائما يتطاحنون فيما بينهم للوصول الى عرش السلطنة ، ولم يعنو فى كثير آو قليل بالشعب وحقوقه الا فيما يختص بحفظ الاطار العام لصالحهم ٠ ومن العجيب أن عقلية المماليك ، وكانت العربية ، لغة وبيئة ، غريبة عليهم ، كانت بسيطة . غير معقدة ولا ملتوية ، ولم يعرفوا اللوع ، بعكس عقلية المصريين المعقدة ، المشحونة بالتجارب ، الملتوية ، الماكرة ،الذكية ٠ آما كيف حكم البسطاء ، « الخام » ، « الدغرى » ، المصريين ذوى العقول المجرية الذكية المعقدة ، فهذه صورة أخرى من صور الجنون العام ، أو هو حكم الأقوياء على قلتهم وبساطة تفكيرهم ووضاعة أصلهم للضعفاء على كثرتهم وعراقة أصلهم ٠

لم ينه حكم العثمانيين لمصر عهد المماليك ٠ عمل العثمانيون على استمرار اضعاف المصريين محتفظين للمماليك بالسيطرة عليهم ماداموا مطيعين ، اسما لا فعلا ، للباشا الوالى العثمانى ٠ عندما استولى « سليم العبوس » على مصر سلبها كنوزها وشحن الكنوز الى القسطنطينية التى أصبحت فيما بعد عاصمة الخلافة الاسلامية ٠ ولم يشحن سليم الأول

كنوز مصر فقط بل وأيضا علماءها وخيرة صناعها ، وتركها « على الحديدة » حتى لا تقوم لها قائمة لوقت طويل •

ولكنه تهادن مع المماليك وجعل لهم الكلمة فى مصر بعد سلطة الوالى التركى •

واستمر هذا حال المماليك يستولون علـى خيرات مصر تاركين الفتات للمصريين الى أن جاءهم نابليون وقضى على أكثر من نصفهم •

لم يكن للمماليك حين حاربوا نابليون فكرة عن فنون الحروب الحديثة • مدافعهم شبه ثابتة فلا تتحرك فى الميدان بالسرعة المطلوبة • وكانوا فرسانا لا يعرفون غير الهجـوم على العدو شاهرى سيوفهم وهم على ظهور جيادهم • أو بمعنى آخر ، حارب المماليك جيش نابليون فى موقعة الاهرام ، فى ٢١ يوليو ثم موقعة امبابة في أول أغسـطس سنة ١٧٩٨ بنفس العقلية والروح التى حاربوا بها التتار فى موقعة عين جالوت منذ ما يزيد عن خمسة قرون (٥٣٨ سنة) •

الى أن جاء محمد على وقضى على معظم ما بقى منهم فى مذبحة القلعة الشهيرة سنة ١٨١١ ، وبذلك خلا له حكم مصر بدون منازع • تقول حتمية التاريخ :

ببقاء جيش الاحتلال الفرنسى فى مصر ثلاث سنوات ، وطموح محمد على ثم حفيده اسماعيل فى جعل مصر قطعة من أوروبا ، دخلت مصر العصور الحديثة متخلفـة عن الركب الحضارى الغربى ثلاثة قرون ونصف بسبب الجنون العـام الذى ساد عصور مصر الوسطى حكاما ومحكومين •

فهل الجنون العام من حتمية التاريخ ؟

خاتمه:

أرجو أن يكون القارىء قد ألم الآن، ولو بطريق الالهام، ما هو الجنون العام • باختصار انه :

١ ــ تصرفات (سلوك) غريبة، شاذة ، تصدر عن شخص أو مجموعة أشخاص أو شعب بأكمله •

٢ ــ لفترة قد تطول أو تقصر ، تبدأ ثم تنتهى كما بدأت •

٣ ــ لا تدخل هذه التصرفات فى حدود العقل (التعقل) ولا تتجاوز حدودها الى المرض العقلى الفردى •

٤ ــ لا يرى الجنون العام من أصحابه ولكن من آخرين يستطيعون الحكم عليهم بمقاييس العقل •

٥ ــ كلما ارتقى الانسان بعقله بعد عن التصرفات المسماة بالجنون العام •• أو هذا ما نرجوه فعلا •

كثيرا ما نسمع العبارتين التاليتين بين شخصين :

ـ لابد وأنى مجنون لأفعل ما فعلت ·

فيرد عليه الآخر بقوله :

ـ هون عليك ، فكلنا مجانين ·

هاتان العبارتان يعنى بهما الجنون العام ، مادام من قالهما فى حالة من العقل تمكنهما من ادراك الأشياء على حقيقتها · ويلاحظ أن الشخصين يتكلمان عن أفعال (تصرفات) مضت ؛ ويمكنهما الحكم عليها متجردين من تأثيرها فى الوقت الذى حدثت فيه ·

ولكون الجنون العام مؤقتا فضرره لا يدوم، بل وله حكم وفوائد من ورائه · ولما كان الجنون العام موروثا فينا منذ أزمنة سحيقة ، فلاشك أن هناك حكمة من وجوده وان كنا لا ندرك غايتها فى حينها · فمثلا ، جنون أخذ الثأر فى الصعيد يدفعنا الى التمسك بتطبيق القانون ·

وعلى كل فالجنون العام موجود فينا جنبا الى جنب مع العقل · أحيانا قد يتغلب الجنون العام على العقل (التعقل)، وغالبا ما يتغلب التعقل فى النهاية على الجنود العام · ولكن أيا منهما لا يلغى الآخر تماما فى أى وقت من الأوقات ·

ويبدو لنا أن الجنون العام لازم لاضطراد الحضارة والمدنية ونموها ، ولولاه لما تقدمنا وارتقينا الى ما نحن عليه الآن · لم تكن العصور الوسطى جنونا عاما دائما ، او تاما ، بل كان يتخللها تعقلا وتقدما أديا بالعالم الغربى الى عصر التنوير ثم النهضة · ويمكن تشبيه العالم أثناء العصور الوسطى برجل سكران يسير مترنحا متخبطا ذات اليمين وذات

الشمال ، ولكنه على كل حال يخطو الى الأمام • لو لم يستفد المصريون ، والعرب ، من جنون العصور الوسطى العام لما قامت بينهم الصحوة الكبرى التى أدت بهم الى تحرر وتقدم اليوم •

والجنون العام قد يكون مفيدا ، ولن تعوزنا الأمثلة :

جنون الفنـون ، التحصـيل والاطـلاع ، الشـهرة ، الامتلاك ، الهجرة ، العلم والاختراع ، الرياضة ، السرعة ، المغامرة ، التسلح ، كل هذه وغيرها كثير تـؤدى الى اثراء وتقدم العقل البشرى • بل لولاها لما كنا وصلنا الى ما وصلنا اليه • ومع ذلك لا نحس بها على أنها ، ولهذا لا نطلق عليها ، جنونا عاما •

أرأيت كيف أن اقتصاد الأمم ومشاكله يشحذ هممها ويرقيها ؟ كذلك الجنون العام •

شاب ظريف

كنت أيام الشباب أتردد على مجلس صديق أديب كلمـا سنحت لى فرصة . وكان فى بيت هذا الصديق صالون صغير يجتمع فيه وخلصائه يسميه المختصر . جمعنى المختصر ذات مساء برجلين لم تكن لى بهما معرفة سـابقة . أحدهما كان أستاذا فى جامعة الأزهر ويرتدى الملابس العادية ، والآخر صحفى فى احدى المجلات النسائية . ما آن تم التعارف بيننا وبدأنا فى تبادل أطراف أحاديث سهلة لينة حتى دخل علينا شاب بادى الوسامة ، طويل نحيل ، قدم نفسه الى مضيفنا :

ــ أحمد محمد أحمد يا أستاذنا الكبير ، أعمل فى وزارة الشئون ومحسوب الدكتورة العظيمة زوجة سعادتكم ، أتيت للتشرف بمعرفتكم وقد سمعت عنكم الكثير وقرأت لكم .

ولم يسع مضيفنا ازاء هذا التقديم المتواضع اللبق من الشاب الظريف الا أن رحب به قائلا :

ـ تفضل بالجلوس معنا يا أستاذ أحمد ·

هكذا كان مختصر صديقي الأديب ، بفعله وفعل زوجته الدكتورة في معهد البحوث ولها صلة وثيقة بوزارة الشئون الاجتماعيـة ، يضـم في أحيـان كثيرة غرباء أتوا للتشرف بمعرفته · قال لي مرة صديقي الأديب عن الغرباء :

ـ لا عليك ، فنادرا ما يتردد على المختصر غرباء أكثر من مرة أو مرتين · ومن النادر جـدا أن يصبحوا معـارف لا أصدقاء ·

جرى الحديث بين الحاضرين كما يجرى عادة في المختصر الى أن تطرق الى ذكر « ابن القيم الجوزية » وكنت لا أعرف عنه شيئا · نظرت الى مضيفي متسائلا ، فقال معقبا وكأنه لا يعنيني بما يقول :

ـ كان رحمه الله عالما من علماء المسلمين أيام عهـود الضعف · عاش في دمشق أيام المماليك ، وله مؤلفات كثيرة في علوم الدين والكلام والفلك والهندسة والكيمياء والطب تبلغ المائة ·

وعقب الأستاذ أحمد على ما قاله مضيفنا :

ـ كان ابن القيم من علماء التربية ، وله آراء قيمة في التعليم ومناهجه ·

ومن ابن القيم الى المعتزلة · قال الأستاذ الأزهرى :

ـ هم جماعة من أهل الكلام يخـالفون أهـل السنة في الرأى ·

سألت :

ـ لماذا سموا بالمعتزلة ؟

وجاءت الاجابة من أحمد لا من الأستاذ الأزهرى :

ــ لأن كبيرهم ، واصـل بن عطاء ، اعتزل بهـم حلقة حسن البصرى متخذا لهم حلقة خاصة بهم • أصبح للمعتزلة شأن كبير أيام الخليفة العباسى المأمون •

وهنا سأل الأستاذ الأزهرى الأستاذ أحمد فى فضـول لا يخلـو من انفعال •

ــ أنا لك بكل هذا العلم يا جهبذ ؟

أجاب أحمد فى هدوء يليق بمقام المختصر :

ــ من مكتبة جدى ، وكان رحمه الله عالما من علمـاء الأزهـــر الشريف •

جواب بسيط ومنطقى حقا •

أديرت القهوة فأخذنا استراحة قصيرة • تناول أحمـد الماء وتجرع نصف ما فى الكوب ولكنـه اعتـذر عن شرب القهوة • قال لمضيفنا معتذرا انه لا يقرب الشاى أو القهوة ويستعيض عنهما بلعب اليوجا حتى تكسبه نشاطا وصحة • ثم شرح لنا بعض نظريات اليوجا المعقدة وقام فى ركن من المختصر بأداء بعض تمريناتها الصعبة ، فاسـتطاع انتزاع اعجابنا وتصفيقنا بلياقته البدنية والروحية •

عادت الأحاديث تتـداعى فى المختصر بعد أن شربنـا القهوة الى أن طرح موضوع القضاء والقدر •

قال الأستاذ الأزهرى :

ــ القضاء ما يقضى بهالله تعالى على عباده ، وهو نفسه القدر • هناك أناس ، والعياذ بالله ، لا يؤمنون بقضاء الله وقدره ويقولون ان كل انسان خالق لفعله دونما قضاء وقدر •

وللقدر معنى آخر وهو وظيفة المخلوق وقدرته اللتين خلقه الله بهما • قال تعالى في تنزيله العزيز، انا كل شيىء خلقناه بقدر ، أى بوظيفة ومقدرة •

قال الصحفى :

ـ مثلا ، قدر المرأة أن تحمل وتلد • وهى لهذا أقدر من الرجل على رعاية أطفالها وخدمتهم ، وخدمة الزوج أيضا لأن خدمة الزوج ستعود بالنفع على أطفالها • أما خارج هـذه الوظيفة المقدرة لها فهى حرة ، فى حدود ، تفعل ما يروق لها ، تدرس أو تعمل ، ولا أقول مع اللاقدريين انا خالقة لفعلها •

قال أحمد فى صوته رنة من شجن :

ـ كان مقدرا على أمى أن تأتى بست بنات قبل أن تأتى بى • كان أبى يحبها كثيرا لجمالها وحسن خصالها ، لذلك أعطاها فرصة أخيرة لتحمل وتأتيه بالولد والا تزوج غيرها عسى أن تأتيه الأخرى بالولد • وفعلا حملت أمى وآتت بى• كانت رحمها الله زوجة صالحة وأما مثالية • لم تتعلم أو عملت وكرست حياتها على رعايتنا وخدمة زوجها •

هنا سأله مضيفنا معبرا عن فضول آثاره أحمد وران على المختصر •

ـ وكيف كان قدر أبيك يا أستاذ أحمد ؟

ـ كان قدر أبى محدودا • تنقل فى عديد من الوظائف بسبب مثله ومبادئه وتورطه فى الأمور السياسية • أمضى فى السجن أربع سنوات الى أن جاءت الثورة وأفرجت عنه • عوضته الثورة ماديا ولم تعوضه أدبيـا أو وظيفيا • كان

رحمه الله متعلما ومثقفا ، حار لفترة طالت ، هل نوع الجنين قدر أم صدفة ٠

أدركت أن أحمد بعبارته الأخيرة قد ألقى فى المختصر قنبلة دعوت الله ألا تنفجر ٠

قال الصحفى :

ـ تصلنى على المجلة خطابات كثيرة فى هذا الخصوص ، هل نوع المولود قدرا أم صدفة ٠ ويتساءل أصحاب الرسائل، اذا كانت الصدف وحدها هى التى تتحكم فى نوع الجنين ، فما هى العوامل التى تتحكم فى الصدف ؟ وبديهى ألا يكون هناك تساؤل اذا اعتقد المستفسرون أن نوع الجنين ، كالحمل به ، قدر ٠

جاء دورى ، فقد نظر الى الحاضرون يطلبون منى العون ٠

ـ تعلمون يا سادة أنه فى المرة الواحدة يكون عدد الحيوانات المنوية الذكور مساويا لعدد الاناث ٠ وعلى هذا يصبح احتمال حدوث جنين ذكر الى جنين أنثى واحد الى واحد ٠ يعنى بختك يا بخيت ، اما ذكر أو أنثى ٠

قال أحمد :

ـ نظرية الا حتمال الحسابى الذى يخضع للصدف ٠

ـ نعم ، أما لماذا كان الاحتمال الحسابى فى حالتك يا أستاذ أحمد ستة الى واحد ، بدلا من واحد أو اثنين أو ثلاثة الى واحد فأظنك توافقنى على أن هذا مرده الى العوامل التى تتحكم فى الصدف ٠

ـ صح يا دكتور ، الحمل قدر والنوع صدفة ٠ هكذا رن صوت الأستاذ أحمد فى المختصر مؤكدا ٠ وكان على

مضيفنا أن يتدخل ليحد من اثارة أحمد للحاضرين فسأله :

ـ ما نوع عملك فى وزارة الشئون يا أستاذ أحمد ؟

ـ أنا وكيل قسم الاحصاء ، معى بكالوريوس خدمة اجتماعية ، وأعمل مع الدكتورة عندما تزورنا من معهد البحوث . أمدها بالاحصائيات التى تطلبها منى .

ـ متزوج ؟

ـ لا ، ليس بعد والزواج قسمة ونصيب .. يعنى قدر .

قال الأستاذ رجل الدين ، يكاد يحتد ولكنه لا يحتد :

ـ من فضلك أسكت أنت يا أستاذ أحمد ودع الدكتور يحدثنا عن الصدف والعوامل التى تسببت فى وجودك فى الحياة ، ثم بيننا الليلة .

ومن الغريب أن أحمد سكت ولم يرد على تهكم الشيخ مما دفعنى الى النزول الى الساحة مضطرا :

ـ لعلكم تعلمون أن المسافة بين عنق الرحم والمبيض حيث البويضة ، بالنسبة الى حجم الحيوانات المنوية الدقيقة ، كالمسافة بين هنا والقطب الشمالى ، ومع ذلك تقطعها الحيوانات المنوية فى أقل من أربع وعشرين ساعة . رحلة طويلة شاقة يتسابق فيها مائة مليون حيوانا منويا تقريبا ، نصفهم ذكور والنصف الآخر اناث ، فلا يصل فى النهاية الى البويضة على سطح المبيض سوى ثلاثة حيوانات أو أربعة على الأكثر والباقى فى الطريق .

لم يتمالك أحمد أن قاطعنى :

ـ نظرية البقاء للأصلح حتى يأتى النسل قويا ما أمكن .

ـ نعم ، وليس هذا نهاية المطاف ، الحيوان المنـوى ، ذكرا كان أم أنثى ، الذى يكون بالصـدفة أقرب الى فتحـة البويضة يدخلها دون الآخرين وبذلك يتم الاخصاب ويتقرر المصير ٠

قال الصحفى :

ـ أعتقد أن الدكتور سيوافقنى على أن العوامل النفسية للمرأة لها دخل فى تقرير الصدف التى تتحـكم فى نـوع الجنين ٠ خذوا مثلا حالة الأستاذ أحمد، عندما تهدد استقرار حياة والدته الزوجية بفكرة زواج والده بأخرى لعل الأخرى تأتيه بالولد ، حملت وأتت بأحمد ، والله أعلم ٠ أنا أعتقد مع الدكتور والاستاذ أحمد أن نوع الجنين تقرره الصدف أو الاحتمال الحسابى أو شيىء من هـذا القبيـل ٠ وهـذا لا يمنع اطلاقا طبعا أن يكون نوع الجنين قدرا كذلك ٠

قال رجل الدين متبرما من الموضوع كله :

ـ ياجماعة ٠٠ ياجماعة ٠٠ الصدف ما هى الا الأقدار، والأقدار هى الصدف٠ ياسادة ، لا تحملوا الظواهر الطبيعية البسيطة الواضحة أكثر مما يجب ٠

قال أحمد متشجعا بى وبالأستاذ الصحفى :

ـ وما المانع ياسيدنا فى أن تكون هناك أقدار وصدف٠ ألم تسمع بالمثل القائل ، رب صدفة خير من ألف ميعاد ٠ لابد وأن هذا المثل صحيح والا ما صار مثلا ٠

ـ لن أقر أبدا يا سيدى بأن مقدرات النـاس الهـامة تقررها الصدف ٠

وكان على مضيفنا مرة أخرى أن يتدخل فسألنى وقـد تمنيت أن يدور بالحديث جهة أخرى:

ـ قل لنا يا دكتور من فضلك ولو عاملا عضويا واحدا من العوامل التى يمكن أن تؤثر فى الصدف • قلت غير غافر لمضيفى اعادتى الى هذا الموضوع الشائك • وقلت فى نفسى، آتى بملحة حتى أخفف من حدة المناقشة :

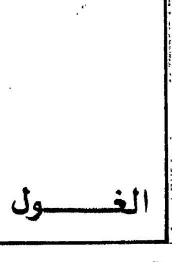
ـ سأضرب لكم مثلا بسيطا ، ساذجا فى الواقع ، يعطينا مع ذلك فكرة عن تلك العوامل • لو أن امرأة مصابة بوعكة برد سعلت أثناء اخصابها ، فان سعالها سيؤثر فى ترتيب الحيوانات المنوية أثناء جريانها نحـو المبيض • سـتتأخر حيوانات وتتقدم أخرى • وقد يكون المتقـدم أمام الزحام حيوان ذكر وقد يكون أنثى ، وعليه فقد يتغير نوع الجنين عما كان سيكون لو أن المرأة لم تصب بوعكة برد ولم تسعل •

ضحك الجميع ، وسعل بعضهم ، ثم سكتوا الا أحمد الذى انبرى للشيخ :

ـ ما رأيك يا أستاذنا الجليل فيما قاله الأستاذ الطبيب؟

قال الأستاذ الأزهرى وقد طفح به الكيل يكيل لاحمد :

ـ أوافقك ياسيدى وأمرى الى الله على أن وجودك كان قدرا ونوعك صدفة • ليت ياشيخ أمك سعلت لحظة اخصابها بك فربما جاءت بأختك السابعة •• ولما كنت بيننا الليلة ••



الغـــول

القـــاهرة ..

ما أعظمك وأفخمك وأبهاك ..

من يرى نيلك العظيم ، وعماراتك الشاهقة على طول ضفافه تعانق سماءك الصافية ، وشوارعك المملوءة بالناس والسيارات طول النهار والليل يعلم انك بلد الحضارة والعز.

من يطلع على تاريخك الطويل يعلم انك منارة الشرق وقلب العروبة ، ومنبع ومصب الخير ..

أثارك ، مؤسساتك ، قصورك ، جامعاتك ، فنادقك ، محلاتك التجارية ، أماكن اللهو والترويح عن النفس ، كلها تشهد على عظمتك ..

من يطلع على صحفك ومجلاتك ووسائل اعلامك يعرف انك مهد الاحداث ومصدر اشعاع الفكر والفن .

يا قبلة طالبى المعرفة واللهو والمتعة . يا ملاذ اللاجئين ومجيرة المستجيرين . كم من رؤساء دول وعظماء قوم لجأوا اليك فى الثلاثين سنة الماضية ؟

عشقت بدور حسن فهمى القاهرة وجرى عشق العاصمة

الكبرى فى دمها • القاهرة مصدر نعمتها وعزها • زارت معظم عواصم الغرب فلم ترق لها عاصمة مثلها •

كانت بدور ، كعادتها كل عصر يوم ، معتكفة وحدها فى غرفة نومها • ضوء شمس شتاء باهت ينعـكس عـلى أثاث وحائط غرفة النوم الفاخرة المطلة على حديقة الأسماك فى أرقى حى فى القاهرة • كانت بدور خائفة ، الى حد الرعب، على صحتها • قالت تحادث نفسها :

« طبيب قال انى مصابة بالمرض الخطير • وآخـر لم يؤكد أو ينفى أنى مصابة بهذا المرض • وثالث آكد أنى خالية تماما من أى مرض ، ولكنه طلب اجراء فحوص • أيهم أصدق وكلهم أطباء عظام مشهورين ؟ أصدق الطبيب الأول طبعا ، لأنه صديق حبيب يعرف عن صحتى وجسمى أكثر من الآخرين ، وثقتى به لا حد لها • آمى ماتت بهـذا المرض اللعين • وقبلها خالتى توحة وبعدها خالتى حميدة • أيكون هذا مصيرى أيضا ؟ ياعينى عليك يا بدور •

هذا يفسر شعورى بالضعف مؤخرا ، ونحول جسـمى وشحوب وجهى • ولكن ، ليس فى نحافة جسمى مرض ، انه « الرجيم » القاسى الذى آتبعه حتى آبدو دائما كالعروس •• هيىء • وقد يكون سبب ضعفى وشحوب وجهى كثرة تناولى الحبوب المهدئة والمنومة • كيف أحيا بدون حبوب آداوى بها آلامى واضطراب نومى؟ آلام العمود الفقرى بطوله، المصران الغليظ ، ضيق الشرايين وتصلبها ، التهـاب حـوض الكلى والمثانة • لا أستطيع النوم ساعة بغير حبوب •

وماذا أفعـل مع الخـوف الذى لا يفـارقنى آبدا •• ومزاجى المعكنن دائمـا ؟ آوجـع الله قلبك وعكنن عليك مزاجك صباحا ومساء يا عاصم يابن حفيظة » •

ما كان ليخرج بدور من تأملاتها الحزينة الا اخذ حبتين .. واحدة مسكنة للآلام وأخرى منومة .

نادت بدور على « بلبل » لتعينها على تذويقها وتصفيف شعرها . دهنت بلبل عنق وصدر وظهر سيدتها بدهان شد الجلد ، من أحدث وأجود ما أنتجته بيوت الزينة في الغرب . طلت وجه سيدتها وخططت حاجبيها ، وظللت جفونها ، وكثفت رموشها ورفعتها الى أعلى ثم مشطت وصففت شعرها . وما آن انتهت بلبل من عملها حتى بدت سيدتها وولية نعمتها مجلوة كأنها « نجمة » تهيأت للظهور على خشبة المسرح أو أمام الكاميرا في الاستديو . صاحت بلبل اعجابا ، ولتدخل السرور على قلب سيدتها :

ـ « ملكة » ، « ستار » ، والنبي ستار .. ولا كل الستار .. ياست الكل .

ابتسمت بدور عن رضا . طلبت من بلبل آن تأتيها بعلبة الصيغة من الدولاب . فتحتها وانتقت منها دلاية من الذهب الخالص نقش في وسطها آية الكرسي :

« الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم »

لبست بدور السلسلة حول عنقها وأصلحت من وضع الدلاية لتستقر بين منبت نهديها .

اعتادت بدور النوم في فراشها شبه عارية الا من لباس بكيني في حجم ورقة التوت ، لتغرى زوجها عاصم بك بمفاتن جسمها . مازالت تعتقد أن جسمها يسيل لعاب الرجال . نظرت الى بشرتها الناصعة البياض كالحليب ، ملساء كالحرير ، لولا ثنايا هنا وكرمشة بسيطة هناك .

كانت بدور فى مطلع شبابها مدمنة حب · من صفات المدمن شعوره دواما بحاجته الى تعـويض نقص ما بداخله لا يعرف ما هو · كانت بدور تشبع ادمانها بجرعات مؤقتة من الحب لا تكفى ولا تشبعها أبدا · وعندما يئست من اشباع ادمانها حولته الى ادمان آخر ·· جمع المال · بذكائها حولت ادمانا لا يروى أبدا الى تجارة رابحة · الواقع أن بدور مرت بادمانات مختلفة مما تتفق وطبيعة فتاة غانية لعوب فائقة الجمال · من صفات المدمن أيضـا ، اغراء غيره ليوقعه فى شرك الادمان · أو بلغة أخرى ، فى شرك بدور ·

بعد فشل زواجها الثالث توقفت بدور لحظة وتلفتت حولها لتتبين طريقها · كان ذلك بعد هزيمة ١٩٦٧ · أصبح لها مدخرات فى البنك تربو على عشرة آلاف جنيه ، وهـو مبلغ متواضع لمن كان فى مثل طموح بدور وحرصها على جمع المـال · وثلاث شـقق بالايجـار فى الزمالك والأنتكخانة والاسـكندرية ·

ولا ينقصها الجمال ومازالت شابة فتية فى الأربعين من عمرها أو أقل قليلا · ولهـا مريدات ومريدون ، حبـايب عزاز ، رهن اشارتها · وكان عليها أن تنمى ثروتها وحدها ومازال أمامها العمر طويل · وحـدها ؟ وهـل كانت أبدا الا وحدها !

علمتها خبرتها فى الحياة أن المال ، فى دنيا الرجال ، لا يأتى الا من الرجال · لهذا اختارت مجالها ، رعاية مصالح الرجال الخاصة · ولأنها كانت مدمنة حب قبل أن تدمن المال، لم ينقصها عامل النجاح فى مجـالها الجديد · تعلمت كيف تبهر الرجال بجمالها وذكائها وسحر أنوثهـا المتفجرة فى الظاهر ، ترودهم حتى يصبحوا حيالهـا كالأطفـال · من

لا يقبل الترويض والخضوع فلا خير فيه فيطرد من الجنة •
وكانت البنات العاملات معها والخاضعات لسيطرتها يتصرفن
مع « الأطفال » وكانهن رجال •

من طرق الترويض التى اتبعتهـا بدور مع الرجال ،
وكانت تطلق عليهم « الأطفال » تيسـير الطلبـات وتحقيق
المصالح ما أمكنها معتمدة على تأثيرها وقوة نفوذها وسـعة
اتصالاتها بمن يملكون الحل والربط والتيسير والتحقيق •
لم تطمـع كغيرها فى مجالهـا فى عمـولات كبيرة من وراء
« العمليات » ولكنها فى النهاية وعلى طول المدى كانت تخرج
منها بنصيب الأسد • كانت تسخو فى الصرف على «العمليات»
حتى تحقق الطلبات والمصالح . وتعتبر السـخاء فى هـذا
المضمار نوعا من الاستثمار قلما يذهب سدى •

وأخيرا ، من فنون الترويض ، دفع العميل العزيز الى
التورط فى أخطاء تتعلق بالعمل أو الأسرة ، ثم التلميح له
باطلاق الاشاعات والتشهير ، وعلى العميل أن ينجوا بنفسه
وينقذ سمعته باللجوء الى مـدام بدور متزلفا لتعينـه عـلى
انتشال نفسه من وهدته •• اذا شاءت •

كانتوسا ئل الترويض تنفع عادة مع الرجال والنبات
معا • عاملتهم جميعا كأطفال ، ربما لأنها لم تنجب أطفالا•

عندما بدأت بدور حياتها العملية فى محل بيكى ريتا
الخياطة فى شارع فؤاد ولم تتجـاوز الخامسـة عشرة من
عمرها ، كان تقديرها فى مادتى البيت والتربية ضعيف ،
وفى مادة الحياة وفهمها جيد •

ولشغفها بمادة الحيـاة وصروفها اسـتمرت تدرسـها

دراسة عملية واعية فاهمة حتى أجادتها وتفوقت فيها ولم تتجاوز العشرين ٠

وللحياة كما خبرتها بدور فى ذلك العمر المبكر قواعد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة :

أولا : كل شىء بثمن ٠

ثانيا : الغاية تبرر الوسيلة ، أيا كانت الوسيلة ٠

ثالثا : الماديات قبل المعنويات ، أو المعنويات هى الماديات ٠

وأخيرا ، بدور أولا ، وثانيا ، وأبدا ٠

ورثت بدور جمالا وذكاءا فائقين ٠ وهذان أكسباها الغنى فيما بعد ٠ كل كاتب يستطيع وصف انسان وصفا مجردا غير منسوب الى مثله أو من يقاربه ، الا الجمال فى ذلك الانسان فيصعب وصفه على أى كاتب الا بالمقارنة بمثله أو من يقاربه جمالا ٠ شهد الجميع لبدور روعة جمالها ، ولم يكن ذلك تصورا أو تخيلا أو من نوع المبالغة ، أو تملقا أو تزلفا أو تقربا ، أو عن حب وانبهار والا لما جرت سطور هذه القصة ٠

كان ذكاء بدور أنثوى الطابع ٠ فيه نعومة الحرير ، ولين العجين وبراءة الثلج ، واندفاع الشراب ، وذوبان الجليد ولم يكن ذكاؤها انثويا خالصا ، فقد كان فيه صحو النهار ، وحدة السيف واندفاع الصقر ، وصلابة الحديد ، واخضاع العواطف للفكر ٠ كانت العواطف عند بدور رخيصة ، أرخص من التراب ٠

كان عاصم عبد المجيد قبل زواجه ببدور ، زواجها الرابع ، تاجرا متوسط الحال مستقرا بتجارته ، وسيما ، معتدل القامة والمزاج ، فيه دعة وطيبة ، ومكر وشطارة ، وخشونة وليونة • كان متدينا ، اذا قسنا التدين بالمحافظة على صلاة الجمعة ، ومسك السبحة السافير ينقلها من يد الى يد الى جيبه • وكان يهوى الحياة فى العاصمة ومشاهدة مباريات كرة القدم فى التليفزيون ، والمواظبة على سماع سهرةالست أم كلثوم مساء أول خميس من كل شهر • على كل ، كان عاصم عبد المجيد فى دخيلته فلاحا من قمة رأسه الى أخمص قدميه •

تخرج عاصم عبد المجيد فى كلية التجارة سنة ١٩٥٠ ثم احترف تجارة المنسوجات بالجملة والقطاعى • تعهدته عائلته الكبيرة بالرعاية والمال عندما بدأ تجارته حتى استطاع الوقوف على قدميه • ولانجذابه وحبه لحياة المدينة العاصمة أخذ تجارته وأسرته الصغيرة واستقر بهما فى القاهرة حيث افتتح له محلا فى شارع الأزهر •

تزوج عاصم بابنة عمه الكبير الغنى زواجا تقليديا لم يجد فيه السعادة التى تخيلها فى الزواج • لم يجن من غنى عمه مع ابنته الا الجمود والعناد والاهمال فرضى بما قسم له الله فى زواجه وتجارته • أمكنه مع الوقت أن يوفى التزاماته نحو بيته ويتبحبح بما يتبقى معه من مكسب على نفسه خارج البيت •

أوصله تبحبحه وميله للانبساط والفرفشة الى التعرف بمدام بدور بعد سنتين من حدوث نكسة١٩٦٧ • لمست بدور فيه مشروع زواج ناجح يمكن أن يستقر ويستمر فأخاطته

بالعناية والرعاية ، وجدت فيه معدنا يوافق معدنها، فراجعت حساباتها وقررت الاستثمار فيه الى آن تفوز به ٠

بدأت تروضه بأن آنجزت له صفقة رابحة لم يتصور امكان حدوثها فى السنوات العجاف التى أعقبت النكسة لولاها ٠

لم يكن عاصم بك ، كما كانت تناديه بدور ، لنشأته الريفية المتدينة ميالا الى شرب الخمر ٠ كانت تكفيه سيجارتان من الحشيش ملفوفتان بعناية بيد بدور هانم ، أثناء قعدتهما الطرية بعد العشاء فى صالونها المختصر فى حى الزمالك ، لتفتح له أبواب وشبابيك الجنة ٠

حاول عاصم بك مرتين الافلات من لعبة الزواج هذه التى زينتها له بدور وبطانتها ، وأعلن قراره صراحة أكثر من مرة :

ــ لست مستعدا الآن للزواج ٠

ولكنه ظل يتردد على صالون المدام ٠

ومع ذلك رأت البطانة العليمة ببواطن الأمور رأيا آخر ٠ كانت بدور فى حاجة الى زوج تثبت به شرعية نشاطها ٠ وكان الحال منتعشا ، والقادمون أكثر من الرائحين ، ولكن العمر كان يمر مسرعا بالمدام وقد جاوزت الأربعين بسنتين ٠ كان عاصم بك أصغر من بدور بسنة وبعض سنة ٠

قالت له ذات مساء ناعمة طرف :

ــ عاصم بك ، لا داعى للزواج ولكن ابقيا أصدقاء ٠

ارتاح عاصم بك لهذا التحكيم الحكيم وظل وبدور هانم

صديقين • ولكنه وجد نفسه بين يوم وليلة وقد تزوج، وبذلك انتقل التاجر المتوسط الحال فى غفلة من الزمن على مخدة من ريش نعام من حال الى حال • أصبح وله مكتب فى شارع عدلى ، محتفظا بدكانه فى شارع الأزهر ، تاجر فى كل شىء مما يسهل الحصول عليه والتخلص منه • ثم أدركته سنين الانفتاح وعام مع التيار وكسب كثيرا • وكانت التجارة فى سنين الانفتاح لا تخرج عن كونها ، رجل اشترى وباع فكسب كثيرا •

عرف عاصم بك كغيره من التجار طريقه الى بنوك الاستثمار • استدان منها حينما كان الدولار بسبعين قرشا، فلما كون ثروة لم يحلم بها يوما بدأ يسدد ديونه للبنك وسعر الدولار مائة وعشرة قروش • هنا أوعز اليه أن ينكمش اذا شاء السلامة والاحتفاظ بما جمعه مع بقاء رأسه طافيا فوق السطح • تنبأ بعيدو النظر أن سياسة الانفتاح قد تصبح وبال على الاقتصاد المصرى • توقعوا أن تزيد نسبة الغلاء فى مصر من ثلاثين الى خمسة وثلاثين فى المائة فى السنة ، فأين ذلك التاجر الذى يكسب خمسين فى المائة ليغطى مصاريفه ؟

خلال فترة زواجهما الذى استمر سبعة عشر عام ، حاول عاصم أن يفلت من قبضة بدور الحديدية وسيطرتها عليه ، ولكنها كانت تتحوطه وتسد عليه كل السبل فيضطر فى النهاية الى البقاء برغبته وارادته كما كان يقول • علم عاصم بعد زواجه من بدور بأشياء لم ترها عينه منها قبل الزواج • علم بلعبة « الأولاد » و « الأطفال » هذه ، ولكنه أفهم أنه سيظل بعيدا عن تلك اللعبة الخطرة •• لا دخل له بـ«الاولاد» لأنه ليس من « الاطفال » فى شىء •

وكانت بدور قد رسمت وخططت لتعيش مع عاصم بك أطول فترة ممكنة ، وربما الى الأبد . تركت له حرية الحركة والكلمة داخل البيت وخارجه ، وكان عليه من عيونها من ترصد عليه كل كبيرة وصغيرة .

كانت قد تحققت من اعتدال مزاجه وحبه للعيشة الرغدة ، ففضت النظر عما يقترفه من صغائر ونهته اذا تمادى فى غيه عن الكبائر .

من الصغائر ، اخفائه عنها دخله من تجارة أو أرض وهى غنية عنه بما لها . وامساك يده عن مصروف البيت وكانت المصاريف كثيرة ومتنوعة . والزوغان فى نزوات عابرة منتحلا عذرا أو آخر . أما الكبائر ، فهى دس أنفه فيما لا يعنيه من شئون زوجته الخاصة ، والتدقيق فى الأسئلة عن هذا أو ذاك ، من « الأطفال » و « الأولاد » وهو لا يعرف عنهم الا الشكل فقط لا الموضوع . والانصات الى المكالمات الهاتفية الهامسة المصحوبة بضحكات ناعمة رنانة طويلة مجلجلة ، والتدقيق فى الأسئلة عن المشاوير .. الى أين العزم .. ومتى تعودين ؟ وأهم من هذا كله ، انشاء علاقات مفضوحة مع محترفات الهوى ، وكانت تغار عليه وتخاف أن تلطشه واحدة منهن فتهان كرامتها . كانت بدور تفاخر دائما أمام الجميع بوسامة وفحولة زوجها الى آخر يوم فى حياتها .

راقبت بدور بعين غشاها النوم ضوء الأصيل يتلاشى عن الحائط أمامها . أطفأت سيجارتها ثم إنزلفت تحت الأغطية . ربما لم تسمع نفسها وهى تتمتم :

القاهرة .. آه منك .. وآه ما أظلمك .

ثم راحت فى نوم عميق .

صحت بدور لترى عاصم بك جالسا على متكىء بجانب السرير يتصفح جريدة . لما شعر عاصم بتململها تحت الأغطية طوى جريدته ونحاها جانبا .

ـ سالخير ياست الكل .

أفاقت من النوم وأدركت عندما رآته فى جلبابه الأبيض انه صلى العشاء . تحاملت على مرفقيها وجلست مسندة رأسها الى رأس السرير . سألته عن بلبل فأجابها :

ـ روحت . زوجها مريض . انتظرت عودتى ثم استأذنت ولم تشأ أن تزعجك .

سألته بدور وفى عينيها خوف :

ـ أتكون قد ذهبت قبل مجيئك وتركتنى فى البيت وحدى ؟

ترك عاصم مكانه وانتقل الى حافة السرير عند قدمى زوجته . قال مهدئا روعها :

ياستى قلت لك انتظرت حتى مجيىء ألا تصدقينى ؟

أقترب منها وحاول تقبيلها فى خدها فأشاحت عنه متصنعة دلالا يليق بالبنات لا بمن فى مثل سنها .

ـ ابعد عنى ، أنت رائق البال .

أجاب مشفقا عليها من أوهامها التى تقاسى منها منذ سنوات :

ـ قلت لك ألف مرة والله العظيم انك بخير ، وليس بك الا أوهام ، والله العظيم أوهام .

ـ أتسمى كلام أطباء عظام أوهام ؟!

أثارت بدور بذكر « العظام » شوائب راسبة فى نفس

زوجها . كل انسان فى نظر زوجته عظيم الا هو ، وكان هذا اعتقاده وعقدته في نفس الوقت . قال مظهرا الانفعال وكأنه يعطف عليها :

ـ وهل عالجك العظام من خوفك من طلوعك ونزولك السلم .. عبورك الشارع .. خوفك اذا تركت فى البيت وحدك .. من توهمك المرض فى كل جزء من أجزاء جسمك؟ سنوات الآن وأنت على هـذا الحال ، كل يـوم فى ازدياد ، حبيسة البيت وحبيسة نفسك ، اذا اضطررت الى الخـروج ساءت حالتك ، يكاد يغمى عليك الى أن تصلى الى المكان الآخر . لا تجرئى على البقاء فى مكان وحدك الا اذا كان معك أحد بجانبك . قالت تقاطعه وقد جسم لها أهوالها بكلامه :

ـ اسكت .. اسكت .. الله وحده أعلم بحالى .

وسكت عاصم على مضض .. قالت لتكسر شوكة غضبه ولتختبر مقدار تأثيرها عليه :

ـ اذا لم أعد أعجبك ، أتركنى ودور لك على غيرى .

ـ عدنا الى الكلام الفارغ .

غادر عاصم مكانه على حافة الفراش وعاد الى متكئه . رفع جريدته من على الأرض وعاد الى قراءتها . سمع صوت زوجته تقول له :

ـ سأقوم لأحضر لك العشاء .

عادة والى وقت قريب ، كانت سهرات مدام بدور تعقد كل ليلة فى بيتها من الحادية عشر مساءا الى مطلع الفجر . كانت سهرة الليلة قد ألغيت بسبب توعك صحة المدام .

جلس الـزوجان بعـد العشاء فى الصـالون الصغير

يشاهدان التليفزيون. وكانت بدور قد لفت لعاصم سيجارة واحدة راح يدخنها بتلذذ ، فصحته لم تعد تتحمل سيجارتين. ولم تشرب بدور خمرا وقد منعها الأطباء من شرب الخمر مع الحبوب المسكنة والمنومة . سرها أن وجدت مفعول الحبوب أخف وألطف من الخمر ، فهى لا تقلب عليها المعدة والمصران الغليظ ، فضلا عن أن الحبوب أرخص بكثير من الوسكى ، اعتذر المذيع فى التلفزيون عن عدم عرض مباريات الزمالك والأهلى لأسباب فنية فلم يجد عاصم بك فى التلفزيون مايشد انتباهه .

عادت بدور تتكلم عن المرض والأطباء .

ــ حجز لى الدكتور فوزى غدا ميعادا لاجراء فحوص فى المستشفى الدولى . سيمر على الدكتور حسين فى الصباح ليصحبنى وبلبل الى المستشفى الساعة الثامنة ، وليبقى معى ليباشر كل شىء بنفسه .

قال عاصم مديرا الحديث عن المرض وجهة أخرى :

ــ هل تم طلاق زيزى من الدكتور حسين ؟

ــ قريبا ان شاء الله . اتفقت معهما على أن يدفع حسين لزيزى عشرة آلاف جنيه وتبرئه زيزى من كل شىء .

ــ قلبى يحدثنى أن حسين سيعود الى منى .

قلبه يحدثه ! لم يجرؤ على القول أن بدور تخطط لعودة المطلقين بالثلاثة لبعضهما ، فهذا شىء من شئونها الخاصة ، وهو الجنتلمان ، لا يتدخل فيما لا يعنيه . ومع ذلك أجابته بدور :

ــ لم أبت فى هذا الموضوع بعد ، على انه أمر ليس بعيد الاحتمال .

عادا يركزان على التلفزيون وكان فيه عرض سريع لأحداث أربع وعشرين ساعة :

« تم اليوم فى نيودلهى حرق جثمان السيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند التى أغتيلت يوم الأحد الماضى بيد أحد حرسها الخاص من طائفة السيخ مما ينذر بحرب طائفية بدأت مظاهرها فى اقليم البنجاب • ومن المنتظر أن يخلفها فى رئاسة الوزارة نجلها راجيف غاندى » •

عندئذ ندت عن عاصم بك ضحكة بلهاء • التفتت بدور ناحيته مستغربة ضحكة على الخبر الحزين وسألته :

— ماذا يضحكك يا مسطول ؟!

— هأ هأ ، على من يحرقون فى الدنيا والآخرة •

اكتأبت بدور من فأل زوجها • انتفضت واقفة وغادرت الغرفة • بعد قليل لحق بها عاصم ليجدها قد لجأت الى الفراش • اندس بجانبها وأحاطها بساعديه يداعبها • تمنعت فسألها وقد حمد الله على تمنعها :

— هل أخذت حبتك المنومة ؟

— نعم ، لا تنسى أن توقظنى قبل الثامنة حتى لا أتأخر عن ميعاد المستشفى •

سكنت فى حضنه قليلا الى أن سمعت شخيره فاستدارت وأعطته ظهرها • أسلمت نفسها لأفكارها وذكرياتها الى أن تفعل الحبه المنومة مفعولها • سرحت فى حكاية الدكتور حسين ومنى •

تعود معرفتها بالدكتور حسين أحمد خطاب الى سنة ١٩٧٣ أيام الفرحة بانتصار أكتوبر العظيم فى ذلك

الوقت كان بيتهـا ملتقى الجميع لتبـادل التهنئـة بالنصر واستعراض الآمال العراض والتخطيط للمستقبل • فتحت الفرحة شهية الجميع للأكل والشرب والرقص والغنـاء الى الصباح • بشر العـارفون بسياسة الانفتاح الاقتصـادى ، قبل أن يعلن عنها بطل الحرب والسلام ، على انها نقطة تحول فى تاريخ الاقتصاد المصرى • يقول أحدهم :

— من يصدق أن الشيوعية اذا دخلت بلدا تخرج منه ؟

فيرد عليه آخر :

— حقا ليسقط الروس ويحيا الأمريكان •

عانت الطبقة المسماه فى عهد الاشتراكية ب «الرأسمالية الوطنية» من الاختناق طويلا أيام النكسة وحرب الاستنزاف، وها هى الفرصة قد واتتها لتتخم بالرأسمال الأجنبى • شهد صـالون بدور فى الزمالك فى تلك الأيام تصريحات وآراء وتعليقات كثيرة لو سجلت لكونت سجلا ضخما عن استراتيجية الحرب والسلام فى دولة نامية منتصرة • ما كان ، وما كان يجب أن يكون ، وما سيكون :

« بعد انتصار عبد الناصر المعنوى فى حرب السويس أعقبه رخاء ، والرخاء أدى الى الرفاهيـة ، والرفاهيـة الى التراخى والتسيب ، وهدان الى الفسـاد الذى أوقعنـا فى هزيمة ٦٧ •

ثم أعقب الهزيمة كساد إقتصادى ، والكساد نبهنا الى سـوء حالنا ، مما دفعنـا الى الحرب والانتصـار فى ٧٣ ، وانتصارنا سيجلب علينا الرخاء ، وهكذا تدور بنـا عجلة التاريخ فى حلقة مفرغة •

حقا يا سادة ان مصر لن تموت ، لأنهـا بلد الفراعنة العظام صانعى المعجزات • ثم هبط عليهم وعلى بدور الرخاء مع الانفتاح ، وكأن السماء أمطرت ذهبا وفضة •

كان الدكتور حسين خطاب من ذلك النـوع من الشباب الذين يسعون قبل كل شىء الى الثراء • جمع فى مستهل حياته العملية تحويشة لا بأس بها من عمله فى بلد عـربى. كفته ليعيش وأسرته الصغيرة بضع سنوات فى انجلترا حتى حصـل عـلى درجة الزمالة فى الأمراض الباطنة • رفض بعد عودته الى أرض الوطن وظيفة حكومية واكتفى بفتح عيادة خاصة أنيقة فى ميدان باب اللوق ، ثم انتظر الفرج من عند الله جزاء له على اجتهاده وطمـوحه • سـاقه حظه الحسن الى صالون مدام بدور عن طريق زبونة لمست فيـه حبه للمال وقابليته للترويض • وجد الدكتـور فى أكبر صالون من نوعه فى القاهرة الجو والمجال المواتيين لطموحه، وفعلا حصل على ما كان يتمناه ويحلم به بعد أن حاز القبول وتم ترويضه • أيامهـا ، كانت بـدور تهتم وتعطف عـلى الشبان الشاطرين •• خاصة الأطباء • لما وضحت الرؤية أمام الدكتور حسين ورأى الدنيا مقبلة عليـه ، اسـتبدل سيارته الفيات ١٣٢ بسـيارة مرسيدس ٢٣٠ بيضـاء من تاجر سيارات دلته عليه بدور قالت أن التاجر سيسره التعامل مع الدكتور •

ولما تمكنت بدور من الدكتور زينب له الزواج ب «منى» فلما قبل الفكرة من حيث المبدأ كانت هديتها له عقد عمل فى مستشفى كبير من مسـتشفيات الاسـتثمار • ما كان أكرمها معه وقد أصبح رهن مشيئها •

فى مطلع شبابها ألمت بدور بشىء من فنون الاخـراج

السينمائى • كان لها معرفة وانبهار بعمالقة الاخراج والانتاج السينمائى أثناء فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ومع ذلك ، وعلى الرغم من جمالها الفائق لم تظهر على الشاشة الفضية الا فى رواية واحدة فى دور « كومبارس » لأسباب خارجة عن ارادتها لم تتبينها جيدا ، حافظت دائما على صلتها بعمالقة المخرجين والمنتجين ومن يتملقهم من أهل الفن •

ظل فشلها فى أن تكون ممثلة كبيرة ونجمة فى سماء الفن يخايلها فترة طويلة وانعكس ذلك على كثير من تصرفاتها فيما بعد • من معارفها الذين طرقوا مثلها أبواب المجد ، والاستديوهات ، وترددوا على بيوت العمالقة من اشتهر ولمع نجمه فى سماء الفن ، ومنهم من صعد الى مستوى معين لم يتعداه بقدر ما حاول ، ومنهم من حبا فقط ولم يقو على الوقوف على قدميه أو المشى • عزاؤها أنها تعلمت بعض من الصنعة ومارست فن الاخراج بعيدا عن أضواء « البلاتوه » الغاشية •

تعلمت بدور كيف تخرج « السيناريو » الذى تكتبه بنفسها لصالحها، فى حلقات غير متعاقبة بحيث لا يعرف غيرها ما حدث بوضوح الا بعد أن يكون « الشغل » قد انتهى وتمت عملية « المنتاج » للحدث أو الدراما • كانت « الروايات » التى تخرجها بدور لفائدتها تجرى معظم أحداثها فى صالونها أو فى أماكن تحددها ، وكانت كلها مشوقة ذات طابع درامى مليىء بالمفاجآت ، هكذا أصبحت «منى شوكت» زوجة الدكتور حسين خطاب •

كانت بدور تطلق على البنات المتحلقات بها كالأساور حول معصمها واللاتى أجادت تدريبهن على الشغل جيدا

« الأولاد » أما العمـلاء الـرجال فكانت تطلـق عليهم اسم « الأطفال » • كانت لكل واحـدة من « الاولاد » طابعهـا وأسلوبها الخاص في معاملة «الأطفال» • كلهن كان يشترط فيهن الجمال ، ووضوح الرؤية ، وادراك المضمون، والقدرة عـلى الوصـول الى الهـدف • من بين « الأولاد » كانت الارستقراطية ، والعامية ، والسيدة ، والتابعة ، والطموحة والقانعة ، والنافرة ، والودودة ، والجشعة ، والتي لا تصلح الا لتكون رسولة غرام •

جمعت مني شوكت جمـال الترك ، وسـحر الشرق ، وهيئة الارستقراطيات ، ونفور الغزلات ، ونعومة القطط ، ودفء الشمس ، وبرودة القمر ، وشرود الذهن ، وحضور البديهة ، وقلة الكلام مع حلاوته ، كل هـذا على قوام لدن كغصن البان ، عندما جاءت مني الى مدام بدور كانت قد طلقت مرتين •

كانت من أصل طيب الا أن والديها لم يكنا أبدا على وفاق • لذلك لم تنتظم مني في الدراسة وكرهت المدرسـة وفاتها قطار التعليم • عطفت عليها عمة لها تبنتها وكانت في الحادية عشرة من عمرها فأنقذتها من الضياع • علمتها العمة الطيبة الايتيكيت الراقي ، والسلوك الرفيع ، والنطق السليم ، كيف تتحرك وتمشي ، ومتى تتكلم وتسكت ، وماذا تلبس لكل مناسبة •

زوجتها عمتها عندما أوفت على السادسة عشرة من قريب يعمل في السلك الدبلوماسي تصور انه وجد في مني ضالته • ولكنه سرعان ما طلقهـا بعدما اصـطدم بأميتهـا وجمـود عواطفها • تزوجت بعد ذلك ولم تكد توفي عدتها من جار

كانت عينه عليها قبل زوجها الأول وأنجبت منه ولدا • لم يعش الطفل سوى سنتين فلم يلبث زوجها أن طلقها لنفس أسباب طلاقها الأول •

ساقت الظروف منى الى مدام بدور ولم تكد تتعدى التاسعة عشرة • دربتها بدور بصبر وخبرة المدربة القديرة الى أن جعلت منها احدى « أولادها » •

زوجتها بدور بتاجر شاب يملك والده تجارة رائجة فى وكالة البلح ولها فروع فى الأرياف • استمر زواج منى بالشاب التاجر حوالى عشر سنوات ألمت خلالها الماما خاصا بأصول الربح السريع • كانت بحكم زواجها ، والغرض منه ، شريكة زوجها فى التجارة دون أن تكون شريكته الا عند الطلب • وكانت هناك بدور دائما تنصحها كيف تتخم حساباتها فى البنك بالدولار والجنيه حتى ضمنت منى مستقبلا رغدا مع أو بدون زوجها التاجر الشاب • الى أن خطر على بال بدور أن تنقل منى من دائرة المال الى دائرة الجاه بزواجها بالدكتور حسين خطاب •

تعودت منى أثناء زواجها بالتاجر على أسلوب خاص فى معاملة الرجال ، قوامه التلطف معهم لتخرج منهم أكثر ما تستطيع من المال عن طريق الصفقات • وكانت الصفقات تناقش فى أول الأمر ثم فى آخره فى حضور منى وعنايتها الزائدة بالعملاء • وكانت الصفقات اذا انتهت تقام بمناسبتها حفلات مختصرة فى بيتها يدار فيها أجود أنواع الشراب وما لذ وطاب من الأطعمة الفاخرة التى تؤخذ عادة مع الخمر • فلا عجب أن أكثرت منى من شرب الخمر حتى أدمنتها •

لم يعلم الدكتور حسين أن زوجته الجميلة كالهة جمال والعطرة دائما بأفخر أنواع العطور مدمنة خمر ٠ أو أنهـا تعودت عـلى معاملة الرجال معاملة خاصـة متجاهلة حقيقة شعورهم ، وكان لها العذر كل العذر فى احتقارهم ٠ وفات على الدكتور أيضا أن معظم طـاقات منى العقلية والعاطفية المحدودة أصـلا بفعل الحياة السريعة المعقـدة التى فرضت عليها قد استهلكت ٠ عندما طلقت منى من التـاجر لتتزوج حسين خطاب كان داخلها قد تصدع ٠

كل ما أمكن الدكتور حسين ملاحظته أن منى قريبة منه وفى نفس الوقت بعيدة عنه ، نافرة ومقبلة ، ثم أصبحت تضن عليه بحبها ٠ فى الواقع أنها لم تتعمد ذلك المسـلك الجاف معه، ولم تكن كما ظن الدكتور تتصنعه كله أو بعضه٠

كل ما فى الأمر أن البرود العاطفى والجمود الفكرى حلا فى منى محـل عاطفـة وفكر كانا ضحلين قليلين أصـلا ثم استهلكا ٠ وزاد من تعقد الأمور مع الدكتور أن زوجته فاتحته فى أمر طلاقها ولم يمر على زواجها عام ــ لم تقل طلاقا ، ولكنها قالت من الأفضل أن ينفصلا لبعض الوقت ٠ لم يصدق الدكتور حسين أذنيه فيما سمع من زوجته فسألها مستوضحا :

ــ أترغبين فى أخذ أجازة منى ؟

وكان جوابها غامضا :

ــ أوه ، أخشى أنك لن تفهمنى ٠

حير الطبيب أمر زوجته فلجأ الى بدور يستطلعها الأمر العجب ٠ ولم تدر بدور حقيقة السبب ولكنها خمنته ٠ عرفت عن منى، مثلها كمعظم « الأولاد » ، كرهها الدفين وازدراءها الخفى للرجال ، وعن حسين « الطفل » أنه يحب منى من أجل

خاطر عيون بدور الواقع تحت تأثيرها . قالت بدور تستخف به :

— ربما مما أراد ، لأن غيرتك على البنية لم أره على أحد .

— الواقع يا عمتى أنى لا أتيق فراقها . هل فكرتى فيما سيحدث لى اذا طلقتها ؟

نظرت اليه بدور نظرة طويلة فاحصة ثم قالت تطيب خاطره :

— نصيحتى لك يابن الحلال أن تسمع كلام البنية وتطلقها حتى ترتاح نفسيتها ، وبعد ذلك أترك الأمر لى وأنا كفيلة لاعادتها اليك قبل أن تتم عدتها .

ولم يكن أمام الدكتور الا أن يوافق .

— أمرك يا عمتى .

نظرت اليه بدور مشفقة عليه فى تلك المرة ، فهو على أى حال أحد « الأطفال » العزاز وقالت له :

ستبقى أنت عندى كما أنت . يستحسن أن تعود الى أم عيالك تعيش معها ، وفى نفس الوقت تتردد على كأن شيئا لم يحدث .

ارتاح حسين الى رأى ونصيحة عمته بدور وطلق منى ، وظل يتردد على العمة كل يوم فى الصباح ويتعشى عندما فى ليال متقاربة . كانت منى تقضى معظم النهار عند بدور وتبيت الليل وحدها فى شقتها فى نفس الحى غير بعيدة عن شقة بدور . كأنها كانت تستعذب وحدتها أثناء الليل بعيدا عن أجواء بدور الصاخبة . وكانت تخرج مع حسين أحيانا للعشاء والسهرة فى النوادى التى اعتادت التردد عليها قبل

زواجها به • اعتقد حسين أنها ملت وحدتها وفاتحها ليلة فى أمر عودته اليها ولم يجد منها ممانعة كبيرة وهى واقعة تحت تأثير الشراب •

وعاد حسين الى منى قبل أن تتم عدتها كما وعدته بدور •

ولكن حال منى لم ينصلح بعد العودة • عادت بعد بضعة شهور تلمح فى أول الأمر ثم تصرح بطلب الطلاق • فى تلك المرة عرضت منى على حسين أن تتنازل له عن كل حقوقها عنده ، وزادت فى كرمها فقبلت شرطه أن يبقيا صديقين بعد الطلاق • قالت بدور تحسم نزاعا الغالب فيه مغلوب :

ــ خلصونى • ألا توجد عندى مشاكل غير مشكلتكما ؟ وما المانع اذا أصبحتما أصدقاء بعد الطلاق • على رأى المثل ، أزواج تعساء أصدقاء سعداء • وكان طلاقا بلا رجعة الا بعد كتابة عقد جديد • وظل الجميع أصدقاء وحبايب •

أدركت بدور ما كانت تعانيه منى مما لم يدركه الدكتور زوجها ، انتهت منى فعلا وركنت نفسها على الرف • زارتها بدور فى شقتها بعد طلاقها ولم يسرها ما رأت • وجدت منى واقفة فى حمام شقتها تكسر زجاجات الشراب فى البانيو وشظايا الزجاج ورشاش الخمر ورائحتها تتطاير حولها • رأت فى عينى منى بريق فوز ، وفى وقفتها المنتصبة هيأة انتصار •

ــ ماذا تفعلين يا مجنونة ؟

تلاقت عينى العاقلة والمجنونة وأدركت العاقلة ما عناها ادراكه حينما ردت المجنونة :

ــ خلاص يا عمتى • جاءتنى الهداية من الله ــ نويت على التوبة والاسلام •

لكن الفاكهة المحرمة غالبا ما تكون أكثر مشتهى ، راح حسين يلح على بدور أن تعيد اليـه منى الشـاردة • وفى محـاولة يائسـة أعادت بدور المطلقين الى بعضهما • كان غرض بدور الأول أن يرعى الدكتور زوجته المريضة فربما عاد اليها عقلها • والغرض الآخر الاحتفاظ بحسـين وقد استثمرت فيه الكثير لصالحها وصالحه ، وبذلك تكـون قد ضربت عصفورين بحجر •

رأى الدكتور حسين فى ترك منى للخمر وتحولهـا الى الصلاة والعبادة رغبة مخلصة منها فى بدء حياة جديدة معه • اما أنها تداوى خطايا وأخطاء سابقة لا يمحى لها أثر فهـذا ما لم يخطر له على بال • وقد يكون قد جال بخاطره ولكنه لم يجرؤ حتى على التفكير فيه • شارك زوجته فى أول الأمر فى الصلاة والعبادة ليتقرب منها ويرضيها ، ويتقرب هـو الى الله أيضا ولكنه عندما اكتشف أن ارضاءها أصبح صـعب المنال تركها لشأنها وللدين والمشايخ •

عرف المشايخ والكوديات حكاية تدين منى فتقـاطروا على شقتها التى حرمتها على الرجال • لم يجد حسين أو بدور فى تردد أولياء الله عـلى منى ما يثير الدهشـة أو العجب ، فارتضينا كارهين زياراتهم الطـويلة المتـكررة • كان يلذ لبدور وحسين أحيانا سماع بعض فتاوى المشايخ من فم منى:

ـ وضع طلاء الأظافر مكروه يا عمتى ، لأن المانيـكير يمنع وصول ماء الوضوء الى الاظافر فيبطل الوضوء والصلاة • أما الزواق وما يوضع على البشرة فهو مباح لامكان ازالته قبل الوضوء فلا يبطله ، والله أعلم •

وكان حسين وبدور يعزيان نفسيهما عند سماع هـذا الكلام بقولهما :

ـ رب شر أهون من شر ٠

امتنعت منى عن مباهج الحياة تماما ومنهـا معـاشرة زوجها لها فى الفراش ٠ وكان لها حججها الواهية والكاذبة ، والتى منها المزاج المعكنن ، انشغال حسـين عنهـا بعمله ، غيرتها عليه ، الصيام الذى لا ينتهى ، التعب أو المرض أو المغص أسفل البطن ، الى أن أيقن الزوج من عزوف زوجتـه عنه واصرارها على حرمانه من حقـوقه الشرعيـة ، فلعق جراحه فى النهاية وراح يداويهـا بعلم بدور عنـد غـير زوجته ٠

أدركت منى بعد فوات الأوان انها خريجة مجتمع «الظل» ٠ وكان أن صح عزمها على العيش فى « الضوء » ٠ ولكنها لم تقو على قطع علاقتها بعمتها القوية التى هى صنيعتها ٠ من غير بدور يرعاها ويحميها اذا لزم الأمر ٠ كانت منى ، كمعظم « الأولاد » قد لمست فى بدور ازدراءها الخفى للرجال فتكون داخلها عقدة « بغض الرجال » لذلك لم تدهش بدور حينما حملت اليها منى معتقدها وصرحت به ، ولم تدهش منى عندما وجدت عند بدور تعاطفا وأذنا صاغية ٠ لا شىء فى طباع وسلوك البشر غريب على بدور ٠ أصغت بدور الى منى ووعت الرسالة التى أرادت منى توصيلها اليها ٠٠ الطلاق ٠٠ ومن كل جنس الرجال ٠

ـ ولم لا ياحبـة عينى ٠ قطعت الـرجال جميعـا من دابرهم ٠

ـ متى اذن يا عمتى ؟

أخذت بدور نفسا عميقا من مبسم سيجارتها الاسود الطويل ثم نفثت الدخان بعيدا نحو رأس منى حتى لفتها سحب الدخان ٠

ـ اعطنى وقتا لن يطول ٠

ولم يطل الوقت الى أن حمل الدكتور حسين متاعه القليل من شقة منى وفى جيبه ورقة طلاق بائن لا رجعة فيه الا بمحلل ٠

شهور قليلة ، وعقد قران الدكتور حسين على الراقصة الفنانة الصاعدة زيزى محمد فى شقة بدور ٠ حضر حفل الزفاف الكثير من « الأطفال » و « الأولاد » ، ومنهم منى ، ورقصت العروس فى فرحها بفستان الفرح ٠ ولم يفت على كرم منى أن أهدت العروس قبل مغادرتها الحفل سوارا من الذهب مرصع بالماس ثمنه ألف وخمسمائة جنيه مع تمنياتها الطيبة للعروسين ٠

كان لبدور رأى فى كثرة ظاهرة الزواج والطلاق بين « الأولاد » ، وهو أنهن يسعين وراء سعادة وحياة أفضل دائما ٠ وليس فى الزواج التقليدى المستقر اذا طال الا الخضوع ثم السأم والملل ٠

أثقلت الذكريات وأشجانها أجفان بدور ٠ غطست فى النوم بفعل الحبة المنومة فنامت نوما عميقا خلا من الأحلام ٠

حضر الدكتور حسين فى الصباح فى الميعاد المتفق عليه ورافق بدوروبلبل تمسك بيديها المرتعشتين ، وكانت بدور طول الطريق تتمتم وتكرر الله أكبر ٠ الله أكبر ٠ ليس لها من دون الله كاشفة ٠ فترد بلبل بقولها :

ـ والنبى سليمة ان شاء الله ياست الكل .

ـ سأل الدكتور مدير المستشفى المريضه الهامة عما تشكو منه فأجابته فى لهجة متهاوية يائسة :

ـ همدان وضعف عام مستمر ، اضطراب وقلة نوم ، صداع فظيع مستمر ، ألم فى المعدة والمصران الغليظ ، أوجاع هنا وهنا ، خفقان فى القلب وصعوبة فى التنفس ، خوف من هبوط السلم وعبور الشارع ، أشياء كهذه .

ـ وما سبب كل هذه الاشياء فى اعتقادك ؟

أخشى أن يكون عندى المرض اللعين .

ـ وما هو ؟

ـ السرطان .

ـ فى أى مكان ؟

ـ لا أدرى .

نظر الطبيب الكبير الى المريضة من فوق نظارته المنزلقة على أنفه نظرة فاحصة ثم قال فى نبرة حاول أن تكون مشجعه ومطمئنه :

اذن ، فى هذه الحالة نعمل فحص عام ، « تشك أب »

الفحص العام ، ال « تشك آب » تقليد جديد على الطب ، الغرض منه الغاء العامل البشرى ما أمكن فى تشخيص الأمراض مادامت الأجهزة الالكترونية المعقدة تعمل وحدها لتظهر الحقائق بالأرقام ، أو بمعنى آخر ، الأطباء يخطئون والأجهزه لاتخطىء وهى أجهزه باهظة الثمن لايقدر على اقتنائها الا مستشفيات الاستثمار الغنية حيث تدر عليها أجهزة تشك أب دخلا كبيرا .

أخـذت لمدام بدور عدد لا يحصى من الشمع السينيـة والمحورية المقطعيـة والمغناطيسية وفوق الصوتيـة وتحت الحمراء • أدخلت فى جميع منـافذ جسمهـا ابر وقسـاطر ومناظير روعيت أن يكون دخولها وخروجها بعناية وبلا آلم • دفعت في وريد فخدها الأيمن قسطرة طويلة امتدت الى القلب حيث صبغت الشرايين التاجية فأظهرتها حول عضلات القلب التى تغذيها ، ثم آخذت للقلب فيلما سنمائيا استمر عرضه ثلاث دقائق ، وهكذا أخذ لبدور بعد عمر طويل فلماً لم تسع اليه أو تطلبه • وطبيعى أن يؤخذ للمدام عينات من جميع سوائل جسمها وعصارات القناة الهضمية •

استمر اجراء الفحوص معظم اليوم مما آجهد المريضة وزاد من توترها ، وكان عليها آن تنتظر آسبوعا الى آن تحصل على جميع النتـائج وتتضح الأمور • بعد آربعة آيام كلمها الدكتور رمزى فى التليفون :

ــ اطلعت على معظم التقارير فوجدتها مطمئنة، وستكون كلهـا عندى فى العيـادة بعد ظهر غد • سأمر عليك عصر الخميس لأوضحهـا لك بعد آن آشرب قهوتك المحوجة يا ست الكل •

ــ هل اكتشفوا المرض ؟

ــ لايوجد عنـدك آى مرض والحمد لله وانما آشيـاء بسيطة هنا وهناك لاخطر منها على الاطلاق •

ثم أضاف الدكتور الطيب معلومة عنى آن تكون واضحة

ــ على فكرة ياست الكل ، لاتشغلى بالك من جهة فاتورة حساب المستشفى ، فقد سويت كل شىء بدون تكاليف تذكر •

ـ أشكرك يا رمزى ، انت حقيقة صديق عزيز ٠

سألت بدور نفسها بعد أن وضعت سماعة التليفون مكانها ، كم كانت تتكلف هذه الفحوص لو عملت لواحدة غيرى ؟

أظهرت الفحوص وجود تغيرات عضوية بعضها فى حدود الطبيعى لمن فى عمر بدور وهى :

تآكل ونتوءات فى فقرات وغضاريف العمود الفقرى وخاصة العنق والبطن ، التهاب بسيط فى المجارى البولية ، التهاب مذمن وتجاويف حميدة فى القولون الهابط ، سقوط وتمدد فى المعدة ، تغبش وعتامة أسفل الرئة اليسرى نتيجة التهاب رئوى قديم ، نقص حوالى ٢٥٪ فى كمية الحديد فى الدم مع نقص ملحوظ فى عدد الكرات الدموية الحمراء مع كبر حجمها ، زيادة ملحوظة فى سرعة ترسيب الدم ٠

ونفت الفحوص نفيا قاطعا وجود أى ورم من أى نوع فى أى عضو من أعضاء الجسم ٠ ولكن بعض التغيرات لم تكن طبيعية أو مطمئنة ، وهى :

تمدد وتضخم فى جدار الأورطى الصاعد ، ضيق وانسداد فيما يقرب من ثلثى الشرايين التاجية للقلب ، مع تمدد وضعف فى جدار البطين الأيسر ٠ تلف فى الحزمة اليسرى المنظمة لضربات القلب ٠ وكان ضغط الدم ٢٠٠/١٢٠ ٠ مسكينة بدور ٠ كانت شرايينها وأعصابها ممزقة بتأثير الحياة المعقدة السريعة التى تكبدتها فى صمت وحدها دون تفاهم أو عطف أو معاونة من أحد ٠

ملكت بدور ما يدعى بالحاسة السادسة ، وهذه دلتها على مدى السنين الى أن كل ما جمعت وملكت وحققت مآله الى

الزوال ، فلا عجب أن اكتنفتها المخاوف والاوهام حتى كادت تفقدها رشدها • تسلقت الشعاب القصار الوعرة الى القمم الشاهقة حتى تربعت على عرش الهوى • أغراها النجاح السريع وأعماها عن رؤية العواقب • تجنبت كل درب يؤدى الى نوع متواضع من حياة الآمان والاستقرار • فى سبيل الشهرة وجمع المال لم تمنعها أو تثنيها أى عقبة لتحقيق هدفها •

لم تنجب أطفالا • وهذا أفضل حتى لا يكون الأطفال عقبة فى طريق مستقبلها ، أو ربطها برجل يشدها اليه بقيد ثقيل • رأت فى الزواج والأمومة عبودية وتخلف الى عصور الحريم التى ولت • وكان أن جمعت حولها دائما ، ودعت وتكفلت ، رجالا ونساءا كانوا لها « أطفالا » و « أولادا »•

الى أن ظهرت فى نهاية عهد الانفتاح ملكات كثيرات غيرها • منهن من كن « أولادها » وكثيرات لم تعرفهن أو حتى سمعت عنهن •• واستمرت فى شغلها ، والشغل كثير ، دون أن يتأثر الشغل الا مؤخرا ان مجال بدور لا يمكن أن يتأثر بشىء مادامت هناك رغبات وشهوات •

أدركت بدور ببصيرة نافذة باقية آن الحاضر والمستقبل لن يكونا أبدا كالماضى القريب أو البعيد • بدأت منذ عهد قريب موجة الازدهار فى الانحسار • تناقص عدد «الأولاد» اللاتى يترددون عليها ، وأنفضت الناشئات من صالونها قبل اتمام ترويضهن الى « مدامات » أصغر منها سنا وأقل فنا ودراية • ثم أن الترويض يحتاج الى جهد وصبر ، وسعة صدر وطول بال ، مما لم تعد تحتمله بدور كما كانت فى السابق • والترويض يحتاج أيضا الى مصاريف ، توضع عادة تحت بند الاستثمار ، وقد أصبحت بدور فى الآونة الأخيرة حريصة كل الحرص على كل قرش جمعته أيام العز بعرق جبينها حتى ينفعها فى هذه الأيام الغيومة •

أصبح الرجال ، « الأطفال » ، يلحون فى طلب عينات جديدة من « الأولاد » صغار السن ، على قلة الوارد منهن ، وهى لا تحب أن يعمل فى صالونها أو يخرج منه « أولاد » غير مدربات تدريبا كافيا مما لا يتفق ويسيىء الى سمعتها العريضة . لم تكن بدوراً بدا طـول حياتهـا موردة بنات أيا كان .

قريبا سيخلوا صالونها من المترددين والمترددات . ولن ينعقد السامر كل ليلة . ولن يبقى معها سوى زوجها عاصم طمعا فى ثروتها ، اذا حـدث المحتـوم وماتت قبله . ولن يزورها الا بعض المركونات على الأرفف المعترفات بأفضالها السابقة عليهن ، والصديقات القدامى العجائز بحكم العشرة الطويلة ولتمدهن بالقليل من المال عند الحاجة .

الغد ، وما يخبئه لها ، كان منذ وقت قصير شغل بدور الشاغل الذى أرق ليلها وأضج مضجعها . ولـكن كل شيء يهون الا أن يلازمها شبح الخوف من الموت فى صبحها ومسائها . جاءها ذلك العارض البغيض أول ما جاءها فى شكل خوف عام بلا داعى أو سبب . ثم تحدد الخوف الى خوف من الخروج من البيت ونزول وطلوع السلم ، ثم أصبحت تخاف اذا بقيت فى البيت وحدها . ومع الوقت تحول الخـوف الى داخلهـا فخافت من اصابتها بالأمراض ثم أصبحت تتوهم المرض . وأخيرا جاءها الخوف من الموت . فى أحيـان كثيرة يتحـول الخوف الى حالة من الرعب تكاد تشل تفكيرها وحركتهـا . كانت أعز أمانيها فى السابق أن تستمتع بالحياة الى آخـر دقيقة فى عمرها ، ولكن أعز أمنياتها لم تتحقق مع الأسف .

★★★

عرف الدكتور رمزى مدام بدور قبل أيام عزها ، ثم

استمتع بعزها مع المستمتعين أيام كان شابا • قال لبدور بعد أن شرب قهوته المحوجة من صنع بلبل :

ـ تعلمين الآن يا مدام أن كل شيء على ما يرام ، فمن الذى أدخل فى روعك حكاية السرطان هذه ؟

ـ أحدكم •

ـ أحدنا ، أم انت ؟

ـ لا والله أحدكم ، ولا تضطرنى الى ذكر اسمه منعا للاحراج لأنه عزيز على وكأنه أحد أطفالى •

ـ وماذا تفعلين بذلك الزميل الذى أزعجك وأزعجنا بلا مبرر ؟

قالت تضاحكه :

ـ سأحرمه من الميراث •

وما كان للدكتور رمزى الطبيب الانسان الا أن يضحك على مأساة بدور ، وشر البلية ما يضحك •

استأذن رمزى فى الخروج وطبع قبلة الاحترام على ظهر يد بدور • ولكنه ما كاد يتعدى باب غرفة الصالون حتى استوقفته بدور بسؤالها :

ـ دكتور رمزى ، كيف يتأكد انسان من خلوه تماما من الاصابة بالمرض اللعين ؟

كان الطبيب يتوقع سؤالها الذى لم يدهشه • استدار نحو حطام بدور الجالس على الأريكة هده الخوف ، ثم قال مؤنبا :

ـ لو كنت مسلما لحلفت لك بالطلاق ألا بك شيء ولن تصدقينى •

ضحكت بدور للطبيب ضحكة عصبية تدارى بها خجلها، وملامح الخوف التى ظهرت جلية على وجهها لم تخف على عين صديقها الطبيب ٠

مرت ثلاث سنوات ازدادت خلالها الحياة انقطاعا ببدور، وزادت أمراضها وأوهامها ٠ مات عاصم عبد المجيد فجأة منذ سنة فحزنت عليه بدور حزنا عميقا الا آن حزنها عليه لم يطل ٠ نصحها الأطباء أن الحزن سيؤثر تأثيرا ضارا على صحتها ففضلت صحتها وحياتها على الراحل العزيز ، ثم سرعان ما أصبح الراحل ذكرى ، ففيها ما يشغلها عن الراحلين ٠ كانت بدور دائما تعيش ليومها وغدها ، أما الأمس فلم يكن له قيمة تذكر عندها ٠

كانت بدور تردد فى الآونة الاخيرة بينها وبين نفسها، لكل وقت نهاية ٠ وكانت تعنى بذلك أن الأوقات اذا انتهت تتجدد، أو بمعنى آخر، الحياة متجددة ٠ هل اعتقدت فى هذا حقا ؟ أم انها كانت تعتقد فيه لتبعد شبح النهاية عنها ٠ كانت دائما على الرغم من مخاوفها وآلامها متفائلة ٠ شعارها بدور أولا والى الأبد ٠ تمسكت بالدنيا فلا تشبع منها ٠

فى زيارة لبدور فى بيتها للاطمئنان وشرب القهوة المحوجة من صنع بلبل سألها الدكتور رمزى الذى لم يكن فى يوم من الأيام من أطفالها :

ــ صورى لى هذا الخوف الذى يلازمك حتى أفسد عليك حياتك ٠

ــ خوف داخلى ينهش فى عقلى ويشل فكرى ٠ يتجسم لى كأنه « غول » يأتينى فى أى وقت من الليل أو النهار ٠

ــ غول ؟!

– نعم ، غول أسود ضخم الجسم ، له شعر أسود طويل ، تقدحان عيناه شررا ، فاردا ذراعيه على امتدادهما ، فاغرا فاه على اتساعه ، يريد أن ينقض على فيشل تفكيرى ولا أستطيع الصراخ أو الحركة .

– هل كان يأتيك ذلك الغول وأنت طفلة ؟

– نعم ، مرة وكنت فى الخامسة من عمرى ليلة وفاة أخى فؤاد وكان يكبرنى بخمس سنوات . مات كما قالت لى أمى بالروماتيزم فى القلب . ليلتها أخذتنى جارة لتبيتنى عندها فى شقتها بعيدا عن مظاهر الحزن فى شقتنا ، وتركتنى الجارة أنام وحدى فى غرفة مظلمة .. ثم رأيت ذلك الغول مرة أخرى وأنا مريضة فى المستشفى القبطى . كان عمرى عشرون عاما وكاد المرض يقضى على لولا علاج البنسلين وكان قد اكتشف حديثا .

– عمر الشقى بقى . وكان مرضك هذا التهاب حاد فى البريتون ، وهو السبب فى عدم انجابك أطفالا فيما بعد .

– لست آسفة على هذا الآن ، فقد كان عندى كما تعرف « أولاد » و « أطفال » كثيرون . ماذا كنت افعل بالأطفال وأنا أقدس حريتى وأضعها فوق كل اعتبار ؟

كان كل ما تشكو منه بدور فى أول الأمر ، مع آلامها العضوية ، خوف عام . ولم يكن بعد قد أصابها توهم المرض أو الموت . طلب منها الأطباء أن تمتنع عن شرب الخمر تماما ، ووصفوا لها الحبوب المنومة والمهدئة . سألت وقتها الأطباء ،

– وهل امتناعى عن شرب الخمر سيمنع عنى الخوف ؟ أنا أشرب لكى أتشجع فلا أخاف .

– كل ماتجرعتينه من خمر لم يذهب بخوفك المرضى .

ان الادمـــان على الخمر يعظم من عقـــدة خوف • جربى أن تمتنعى عن شرب الخمر فلك ارادة من حديد •

امتنعت بدور عن شرب الخمر ولم تنفع مع الخـــوف أيضا كثرة الحبوب المنومة والمهدئة •

عندما تقدمت بدور فى الخمسينـــات من عمرهـــا كان داخلها قد تحطم ، لولا جمال باق آثره على الوجه وبريق ذكاء سكن العينين لاعتقـــد من رآها انها توغلت فى الستينات • كلما تطلعت الى مرآة رآت الخوف ماثلا فى عينيها • تحاشت نظرات الناس اليها لاعتقـــادها آنهم سيكتشفون آنها خائفة فعمدت الى لبس النظارة السوداء تغطى بها نصف وجهها • فقدت الكثير من وزنها فبدت يداها معروقتان مما اضطرها الى لبس القفاذات حينما يكون أحد معها • ومع ازدياد نحافتها وضح تقوس ساقاها من آثر كساح قديم آصابها فى طفولتها مما اضطرها الى لبس الفساتين « الكافتان » الطويلة • وكان يحلو لعاصم زوجها ممازحتها آحيانا عندما يراها بالنظارة السوداء والقفازان والكافتان حتى وهى فى البيت •

ـ لا ينقصك الا أن تتحجبى •

ـ أسكت أنت •

ـ لا أقصد ياست الكل الا آن تروقى قليلا وتتخلصى من الحاجات التى تحتجبين وراءها •

ـ قلت لك آسكت انت •

ـ على فكرة لم لا نؤدى مع فريضة الحج ؟

ـ وهل كبرت فى السن حتى آذهب الى الحج •

قل كلامها كما قل من تقوله لهم · كانت « الأولاد » قد انفضضن من حولهـا الى مـدامات لا تدقنن فى الأصـول والاتيكيت ، ولا تتمسكن بأخلاقيات ومبادىء محددة · كل ما يهم أولئك المدامات هو نزول البنات الى الشغل ثم عودتهن بالايراد · مدامات لم يتعلمن آداب المهنة ·

بانفضاض البنات انفض السامر · وأخيرا هدها المرض والخوف من الموت · وهدها الخوف أكثر من الأمراض · أصبحت حبيسة شقتها فى الزمالك ، لا تبرحها الا لزيارة الأطبـاء والمستشفيات ، أو صديقاتها القـدامى التى ترتاح اليهن ولا يقوين على زيارتها لضعف صحتهن أو غير ذلك من المشاغل مع احتياجهن دائما الى معوناتها المادية وتشجيعها المعنوى · لك الله يا بدور ، فتحت بيوتا عمرت بأهلها وما كانت لتفتح أو تعمر الا بك وبمعوناتك المادية والمعنوية ·

وأخيرا تمزقت شرايين قلبهـا · نقلت الى المستشـفى الدولى حيث فارقتها الحياة فى نفس اليوم · ولم يحزن أحد عليها طويلا كما توقعت هى نفسها ·

ترى أين ذهبت ثروة بدور ، وما شقيت لتحصل عليـه طول عمرها ؟ أين ذهبت الفلوس والمجوهرات ؟ أغلب الظن أنها تبخرت ·

ولكن الجواب المعقول ، والمقنـع ، والمنطقى أن ثروة بدور عادت الى من أخذتها منهم ·· الى الناس ·

الى القـاهرة ·

تعريب.. الطبّ النفسيّ

يسألنى كثيرون يعرفون أنى داعية لتعريب الطب النفسى ، وتبسيطة ، حتى يكون فى متناول العموم متى يكون عندنا طبا نفسيا عربيا خالصا نابعا من بيئتنا مفيدا لاحتياجاتنا ؟ وللجواب على هذا السؤال الذى عادة ما يتفاذى الاجابة عليه الزملاء ، بل ولا يحبون التفكير فيه ، هو الآن قبل فوات الأوان ، ولو آننا مازلنا فى مرحلة النقل عن الغرب ٠

ان المجتمع العربى يتطور تطورا جذريا منذ نصف جيل (١٥ سنة) فاذا لم يلحق به الأطباء النفسيون بالدرس والفهم ثم الخدمة المثمرة انفصموا عنه وآصبحوا ، كما فعلوا فى مؤتمرهم الدولى الذى عقدوه مؤخرا فى فندق شيراتون مصر الجديدة ، يصيحون بالانجليزية فى وادى بينما الحقيقة والشعوب العربية فى أودية أخرى ٠

أما لماذا الأطباء النفسيون العرب مازالوا فى مرحلة النقل عن الغرب التى طالت الى الآن ، وقد تطول لتشمل جيلا أو جيلين مستقبلا ، فذلك لأن الطب النفسى الغربى يتقدم

تقدما مذهلا ، لأن المجتمع الغربى يتطور تطورا مذهلا ، فمثلا من الاباحية المطلقة بسبب نجاح وسائل منع الحمل الفعالة الى العفة المتزمتة بسبب الخوف من وباء الايدز ، والثورة التكنولوجية ، وتقلب الأحوال الاقتصادية ، الى آخره ، بينما نحن النفسيون بالكاد نلهث لنلحق بنتاج زملائنا الغربيين ٠

وثمة عوامل أخرى تجعلنا نلح فى طلب تعريب الطب النفسى ، منها أن العلوم الطبية العضوية على اختلاف فروعها تنحوا منذ عهد ليس بقريب الى الأخذ بالأسباب النفسية فى حدوث الأمراض العضوية ، أى أن كثيرا من الامراض العضوية عرف أن أسبابها نفسية ، أو كان منشؤها نفسيا ٠ بل ان الكثير يتنبؤن بأن الطب جميعه سيكون فى المستقبل طبا نفسيا ٠ وقد بدأت البشائر بما يدعى ب «الطب البديل» الذى أخذ ينتشر فى الغرب ، يفسر ويعالج الأمراض العضوية بالطرق النفسية ، مثل الايحاء بطرقه المختلفة كالتنويم المغناطيسى ، والابر الصينية والعلاج بالمغناطيس ، وبالتأمل ، والرياضات النفسية كاليوجا والتصوف ، والماكولات الصحية كالعيش بالردة وعسل النحل ، الى آخره ٠ نحن نعرف منذ وقت طويل أن عديدا من الأمراض العضوية لها أسباب على التأكيد نفسية ، قبل أن تتطور هذه الأمراض ويصبح لها أبعاد ومضاعفات عضوية : مرض ارتفاع ضغط الدم ، قرحة المعدة والاثنى عشر ، الربو الرئوى ، أمراض الشرايين التاجية فى القلب (الذبحة الصدرية) ، كثير من الأمراض الجلدية كالصدفية ، امراض المناعة الداخلية كالروماتويد ، أمراض التمثيل الغذائى كمرض البول السكرى ونشاط الغدة الدرقية (الجوتر التسممى) ، وغيرها ٠

منذ عشرين سنة ، أو يزيد قليلا ، لم يكن فى جامعاتنا المصرية أقسام لتدريس الطب النفسى ، والآن يوجد عندنا عشرة أقسام نفسية بعدد الجامعات ، فيهـا مالا يقـل عن خمسين أستاذا فى الطب النفسى بالاضافة الى العـديد من الأساتذة المشاركين والمساعدين والمعيـدين والمحـاضرين • عمل كل هؤلاء فى مجموعة ، بجانب الأبحـاث الاكلينيكيـة والميدانية ، هـو تدريس الطب النفسى الغـربى باللغـة الانجليزية •

العيب ليس فى اللغة :

اللغة وجدان (عاطفة) أكثر منها فكر ووسيلة إتصال• واللغة العامية الدارجة ، على اختلاف لهجاتها ، أعمق أثرا فينا من اللغة الفصحى التى لا نبدأ فى تعلمها الا ونحن فى السادسة من عمرنا• أو اللغة العامية هى لغة «البيت» قبل اكتسابنا للغة الفصحى ، لذلك فنحن عامة أقدر على التعبير عما فى نفوسنا بلغتنا العامية الدارجة أكثر من الفصحى • نتعامل باللغة العامية ونتداولها فى يسر وتلقائية وبدون تكلف فى البيت ، الشارع ، أماكن العمل ، الترفيه كالنادى والسينما والمسرح ، الى أن نعود فى المساء الى بيوتنا • حتى أصبحت اللغة ولهجاتها من دعائم الانتماء ، وانه اذا كانت جماعة من الناس ترتاح لوجودها مع بعض فان هـذا مرده أكثر لعامل اللغة ولهجتها • ولولا أن الشعوب العربية فى حاجة الى الاتصال بعضها ببعض بسبب الجيرة ووحدة الهدف والمصالح والسياسات الاقليمية لأصبحت الفصحى، لولا الدين والقرآن الكريم ، فى خبر كان • ولأصبحت الفصحى لغـة

تراث يدرس بها ، والغالبية ليست فى حاجة ملحة الى دراسة التراث والعودة اليه فى عصر الفضاء والتكنولوجيا .

وتغيرت اللغة الفصحى ، لانت وتحضرت ونعمت وخفت، واقتربت الى العامية أكثر من أى وقت مضى ، فلغة الجريدة اليومية وكتاب العواميد فى كل بلد عربى أصبحت من السهولة والوضوح والفهم العام بحيث لا تبعد كثيرا عن العامية . واذن ، فصعوبة تعريب الطب النفسى ليس بسبب صعوبة اللغة ولكن لأن العيب فينا .

كان العرب الى ما بعد عهود الضعف يدرسون العلوم الدينية والعقلية ، التاريخ الجغرافيا والرياضيات والفلك والفلسفة ، باللغة الفصحى . وعندما جاءتهم العلوم الغربية نقلوا بعضها مترجما الىالفصحى والبعض نقلوه كما هو بلغته الأوروبية ، ومن هذه العلوم الطبية التى ، بسبب الاحتلال البريطانى ، نقلت عن الانجليزية . نتج عن هذا أن أجيالا من الأطباء ، ومنهم النفسيون ، تعودوا على دراسة الطب بالانجليزية ، وتوهموا انه من الصعب المستحيل تعريب الطب ، كما أنه من الصعب المستحيل تحويل الفصحى الى العامية .

وكل ما أمكن للأطباء عمله هو تداولهم الطب فيما بينهم بخليط فكه من الانجليزية والعامية . ساعدهم على ذلك أنهم، كمهنيين وحرفيين ، يجب أن يكون لهم «سيم» (السيم=اللغة المهنية) خاص بهم حتى يسهل عليهم الاتصال بينهم ، ولكى يتفادوا نقل الأخبار الطبية الى المرضى وأهليهم اذا تحدثوا فى وجودهم .

لكن الحال يختلف فى الطب النفسى الذى عماده وتكوينه

وعلاجاته تقوم على اللغة • كل دولة من دول العالم المتحضر لها طبها النفسى النابع من بيئة أهلها ولغتهم الفصحى والدارجة (وليس هناك فرق كبير بين الفصحى والدارجة فى اللغات الغربية كما هو الحال فى لغتنا العربية) الا دول العالم العربى التى يتبع طبها النفسى من دول أخرى ويطبق بلغات أخرى ، دونما توقع لفوائد مرجوة ، الا فى استعمال الكيمياء (الحبوب والحقن) والعلاج بالصدمات الكهربائية والطب النفسى الجراحى ، وهى على كل حال علاجات وان كانت مفيدة الا أنها لا تغنى اطلاقا عن العلاجات النفسية •

عندما تواجدت فى عيادات خارجية فى انجلترا أو أمريكا وجدت المرضى يستعملون فى وصف أعراضهم ومشاكلهم الاجتماعية لغة هى نفسها الموجودة فى الكتب والدوريات النفسية الخاصة بهذين البلدين • الا نحن فى العالم العربى على اختلاف شعوبه ، المرضى يتكلمون ويعبرون بلغة والأطباء يشرحون ويعالجون المشاكل بلغة وطرق أخرى غريبة عن المرضى • المرضى فى واد والأطباء فى واد آخر •

كنت أتحدث مع احدى المريضات العربيات متتبعا شكواها بعناية نظرا لاختلاف اللهجة ، وكانت المريضة تشكو من أعراض جسمية ونفسية قد يكون منشؤها تباطؤ نفسى (اكتئاب) تفاعلى أو نتيجة لمشاكل بيئية لا أعرفها طبعا • ورحت أسألها مفتشا عن دليل او اشارة قد تقودنى الى سبب مرضها •

س : هل يوجد ما تشكين منه فى حياتك العامة أو الخاصة ؟

ج : لا ، وكل شيىء والحمد لله زين •

س : هل يوجد من يضايقك ؟

ج : لا يوجد من يضايقنى أو يتعرض لى بطريق مباشر الا أن يكون بطريق السحر أو العمل ·

س : وماذا تفعلين حيال السحر أو العمل ؟

ج : نبطلها باذن الله ·

ورحت أسأل في دأب وتروى وتجيبنى بحذر، فأنا غريب عن علمها وأتكلم بلغة لم تعتد عليها ، الى أن وجدت نفسى أسألها سؤالا ندمت على سؤاله لها :

س : هل تخشين أن يتزوج زوجك عليك ؟

وهنا نظرت المريضة الى وكأنى نزلت عليهـا من عالم آخر غير عالمها ثم قالت مستغربة أيما غرابة :

ج : وماذا لو فعل ، أليس هذا حقا مطلقا له ؟

س : ألا يحزنك أن يتزوج عليك ؟

ج : لا بالطبع ، فهذا كما قلت لك حقه ·

استمرت علاقتى الطبية بالمريضة شهرين كاملين عرفت أثناءهما الكثير عنها وعن مرضها بعد أن اطمأنت الى وقصت على طباعها وأحوال الناس فى بيئتها وعاداتهم وتقـاليدهم وأعرافهم ، هى من ناحية وزوجها عـلى انفراد من ناحيـة أخرى · وتمنيت لو كان معى طبيب نفسى من بلدها فاهما لبيئتها أكثر منى ، وحمدت الله أنها لم تذهب ، كما يفعل كثيرون من بلدها ، الى طبيب فى أحد البلاد الغربية ·

سيقول البعض :

ولكن الأطباء والمرضى النفسيين العرب يتداولون الطب النفسى فى مستشفياتهم وعياداتهم باللغة العربية ، وفى كل بلد عربى باللهجة العامية الدارجة ، أليس هذا طبا نفسيا عربيا ؟

والاجابة على هذا السؤال هى :

طبا نفسيا نعم ، ولكنــه مترجم ومأخـوذ عن غيرنا • وشتان ما بين الترجمة والأصل ، آخذين فى الاعتبار صعوبة الترجمة الحرفية من لغة الى أخرى بنفس المعنى • شـتان ما بين الصوت والصدى ، الحقيقة والظل • فمثلا خذ عرض القلق ، قد يكون فى بلد عرض وفى أخـرى مرض ، وقد يعنى فى بلد ضيق واضطراب وفى بلد آخر مهتم ومشغول البال ، أو خوف مما قد يحدث ، أو أن فلانا لا يستقر فى مكان واحد فهو دائم التجوال ، أو انه لا يستقر على حال ، أو انزعاج ، الى آخره • فأى من هـذه المعـانى والمفـاهيم يستعمل من المرضى العرب فى بيئاتهم المختلفة •

لم أصادف ، الا نادرا جدا ، من جاءنى ليقول انه مصاب بمرض القلق دون أن يكون قد زار طبيبا نفسيا على الأقل قبل زيارتى • ولكن عادة ما يأتى مريض القلق ، وهو مرض شائع فى كل مكان فىالشرق والغرب سواء ، فيشرح ما يحس ويشعر به بلغته العامية الدارجة ، وأنا أحثه عـلى الـكلام وأستوضحه الى أن يتضح لى أنه مصاب بمرض القلق ، عرضا كان أو مرضا ، دون سواه •

فى القاهرة يقول المريض ، أنا الآن (يقصـد قلق) عليه ، ويعنى خائف عليه ، ربما لطول غيابه أو من صعوبة

الامتحان ، أو من خطورة الطريق ، وهذه الاخبارات لا تعنى مرضا أو عرضا لمرض • مع ملاحظة آن نسبةالأمية ، وخاصة بين النساء ، فى البلاد العربية عالية قد تصل الى ثمانين فى المائة ، وهؤلاء لا يحسنون التعبير عما يرعاهم ويشكون منه، وعساهم يحسنوا التعبير بلغاتهم العامية •

عمل الطبيب النفسى العربى الى الآن هو التوفيق بين « بضاعته » الغربية و « زبونه » العربى ، الى آن ينتج له بضاعة عربية تتفق واحتياجاته وتنفعه •

والى أن يحين ذلك الوقت سيبقى الشيخ ، والعارف ، والساحر ، والمنجم ، وقارىء الفنجان ، ومحضر الأرواح والعفاريت (الكوديا) والعمل ، والساحر ، يعملون جنبا الى جنب مع الأطباء النفسيين ، وربما زادوا على الاطباء منفعة للناس واحترام الناس لهم لأنهم يعيشون ويفكرون ويتكلمون ويحملون نفس المعتقدات مثلهم • تقول الحقائق ان العامة تذهب الى « الأسياد » العارفين آولا ، ولا يذهبوا الى الأطباء الا اذا فشل هؤلاء ، وكثيرا ما يفشل الأطباء أيضا •

المجتمعات العربية تتغير :

أما السبب الثانى الذى من أجله أطالب ملحا بتعريب الطب النفسى فهو التحول السريع فى شكل وبناء المجتمع العربى عما كان عليه الى عهد قريب • تغير المجتمع فتغيرت الأسرة مما انعكس على سيكولوجية الفرد والأسرة والمجتمع انعكاسا شديدا سيبدو آثره واضحا فى الجيل القادم • فهل توجد فرصة أكثر ملاءمة للباحث النفسى ليدرس يقرر

ما سيكون عليه « المنـاخ » السيكولوجى الغربى فى القرن الواحد والعشرين ، أم ننتظر حتى يمدنا الغرب بما سيحدث فيه ثم نأخذه ، كما هى العـادة ، ونطبقه على المجتمعـات العربية ؟

واليكم التغيرات التى تحدث الآن فى المجتمع العربى متخذا جمهورية مصر العربية مثالا :

١ ـ التحول الاشتراكى الطبقى ، الذى من نتائجه ذوبان ما كان يدعى بالطبقـة الوسطى (البرجوازية فى المجتمع الغربى الصناعى) فقد اغتنى نصفها بسبب سياسة الانفتاح الاقتصادى بعد حرب ١٩٧٣ وانضم الى الطبقة العليا الغنية، وافتقر النصف الآخر وانضم الى الطبقة العريضة (الشعب) . بهذا اختفت مفاهيم وأخلاقيات وتقاليد الطبقة الوسطى . أصبح القرش فى البنك هو لغـة العصر ، البريزة والباكو والأرنب . طلب منى سـائق تاكسى أوصلنى من المطار الى بيتى بريزة (عشرة جنيهات) وطلب منى محامى عن قضية يترافع فيها عنى خمسين بريزة (خمسمائة جنية) ، لاحظ نفس اللغة التى استعملها السائق والمحامى .

انقسم الشعب المصرى الى قسـمين ، طبقة قليلة الحجم ناعمة مرفهة تملك ، وأخرى حجمها ثمانين فى المـائة من مجموع الشـعب المصرى لا تملك . كـلا الطبقتين أصبحتا تواجهان مشكلة عامة ، الغلاء المستشرى والمتزايد . ارتفعت تبعا لهـذا قيمة الماديات عـلى حسـاب المعنويات حتى تتزن النفوس التى تكد وتشقى كما لم تكد وتشقى قبلا . هـذا يفسر لنا هبوط الاقبال على القراءة وشراء الكتب الغـالية

الثمن ، الا الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ، وقلة الاهتمام بالفنون وانهيار المستوى الفنى عما كان عليه فى الستينات ٠

انخفض مستوى معيشة الطبقة العريضة وان زاد دخلها ، وأقبل فى نفس الوقت آفرادها على التعليم الجامعى ، وهاجروا الى البلاد النفطية الغنية ليعودوا بعد سنين بـ « الأرانب » وليجدوا أنهم مازالوا على الرغم من أرانبهم ضمن الطبقة العريضة التى لاتملك ٠

فى هذه الظروف الصعبة ينحو بعض آفراد الشعب الى التعصب الدينى والأيديولوجيات المتطرفة حتى يبعدوا عنهم شبح الاحباط واليأس ٠ ولجأ البعض الى الادمان والتسيب والاجرام ، ولا زلنا فى آول الطريق ولا حلول ٠ ما هو الوضع النفسى للمجتمع المصرى المادى ، آيكون كما هو عندما كان اقطاعيا زراعيا ؟ ما هى سيكولوجية المجتمع المستهلك المتضخم سكانا وماديا ؟ أسئلة بلا آجوبة من الأطباء النفسيين المصريين ٠

٢ ــ سارت المرأة المصرية مؤخرا على طريق العمل بسرعة الطائرة النفاثة ، ولا أقول ذلك عن تحررها ٠ كل زوج شاب ، الا اذا كان محبطا وراضى بقليلة ، لا يعترض على خروج زوجته الى العمل لتشارك فى المعيشة ٠ قالت لى سيدة شابة وأم لطفلين صغيرين :

ــ زوجى غير راضى عن خروجى للعمل لأن راتبه يربو على الألف ومائتين جنيه ، بخلاف السيارة المعطاه له ، ولذلك لا يرى داعيا لكى أعمل ٠٠ وكما ترى (شخشخت بحلقة مفاتيح سيارتها لتثبت لى كلامها) آنا أعمل وسأستمر فى

العمل ، أترانى أتحمل البقاء فى البيت طول النهار بين أربع حيطان وهو يعمل ويتسلى بعمله ؟

لم يحرك الزوج ساكنا ، سوى اعتراضــه الســلبى ، عندما خرجت زوجته للعمل وستستمر تعمل ما حلا لها ذلك، مما لم يحدث فى الجيل السابق ٠

قال لى صديق يبلغ الثمانين من عمره المديد ، ومازال شابا ، مشيرا الى السيدة الفاضلة زوجته وكنا فى رحلة ٠

ـ عندما خطبت زوجتى ، منذ أكثر من خمسين عاما ، اعترض والدى عالم الدين لأنها كانت حاصلة على شــهادة الكفاءة الثانوية ٠

ـ وفيما كان اعتراض الشيخ والدك ؟

ـ لا على شيىء سوى أنها متعلمة ، وهل تنفع المتعلمة كزوجة ؟!

أهى الحاجة الى المال ، أم التحــرر واثبات الذات ، أم الاثنان معا ، ما دفع المرأة المصرية الى العمل ؟

المرأة المصرية ليست امراة مصرية فقط ، بل وأيضا مسلمة ٠ ما هى النتائج النفســية ، ســلبية أو ايجابيــة ، لاستمرار المرأة المصرية فى العمل باضطراد ، وهل نحثهــا أم نثنيها عن العمل ؟

أسئلة يجب الاجابة عليها بالطرق النفسية الأكاديمية (العلمية) والميدانية ٠

٣ ـ الطفل الصناعى :

تقول الاحصاءات فى الادارة العامة للأسرة والطفــولة التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية ان فى مصر ، على مستوى

الجمهورية ، ٣٥٠٠ حضانة تسع كل واحدة مائة طفل ، فيكون مجموع الأطفال فى الحضانات ثلاثمائة وخمسين ألف طفل ، هذا بخلاف الحضانات الأهلية والخاصة بالمصالح والهيئات المختلفة ليكون المجموع حوالى ثلاثة أرباع مليون طفل دون الخامسة من عمرهم ، منهم ٢٥٠ ألف طفل على الأقل طفلا رضيعا دون السنتين من أعمارهم •

هؤلاء الأطفال الرضع ، وكثيرون عمرهم ستة أشهر وتسع واثنى عشر الى أربعة وعشرين شهرا ، قد هجرتهم أمهاتهم بأخذهم الى الحضانات كل صباح قبل ذهابهن الى العمل فى الساعة السابعة ، فلا يرونهم الا فى الساعة الرابعة بعد الظهر • كم بكى هؤلاء الرضع ، وكم يئسوا ، وأسفوا ، ثم كبتوا عواطفهم الحزينة المحبطة ، يوما بعد يوم ، شهرا بعد شهر ، ولا مجير لهم • هل من المنتظر أن تكون سيكولوجية هؤلاء الأطفال الرضع مستقبلا ، وعددهم سيزداد باضطراد ، كمثيلتها لأطفال الجيل السابق الذين نعموا فترة طويلة بحضانة ودفء أمهاتهم ؟ من غير المعقول ، ولا المنتظر ، أن يصابوا جميعا بما يشبه التباطؤ النفسى (الاكتئاب) أو شدة الانطواء ، أو قلق المفارقة فى مستقبلهم حسب نظريات سيكولوجية الطفل التى وضعت منذ أكثر من أربعين سنة •

ما الذى نتوقعه من جيل الحضانات ، والتلفزيون ، والحرب الأهلية فى لبنان ، والحرب فى العراق ، والوفرة والغنى فى البلاد النفطية ، والمادية الاشتراكية فى مصر ؟

منذ خمس سنوات انفجرت فى مصر بين الشباب ظاهرة الادمان على المخدرات • تكلم المتكلمون ، وما أكثرهم ،

عن حجم المشكلة وأسبابها وأبعادها وطرق علاجها . هذه المشكلة لم تنشأ بالتأكيد عن فراغ ، بل كان لها جذور ودوافع ومقدمات ، ولم يتنبأ الأطباء النفسيون بقيامها قبل وقوعها وقد لمسوا بلاشك التحول الاجتماعى الرهيب .

الى الجيل السابق فقط ، كان الناس فى مصر بسطاء ، مسالمين ، منبسطين ، خاليو البال ، سليمو النية ، ودودين ، عشريين ، وما فى قلوبهم على ألسنتهم . واذا هم فى هذا الجيل معقدون ، منطوون على أنفسهم ، مهموموا البال ، شكسون ، حويطون ، جفاة نافرون ، من الصعب معرفة ما فى صدورهم وما يخبئون . أهذا رقى اجتماعى أم تعقيد أم شطارة أم توهان وعدم وضوح الرؤية ؟ كان الناس فى الجيل السابق يعرفون دخول بعضهم البعض المادية ، ولم يكن هناك حرج من سؤال أحد ما دخلك وكيف تنفقه . أما فى هذه الأيام فلا يسأل أحد أحدا مثل هذه الأسئلة ، ففيها احراج وعيب ، فالناس أسرار ، وانت مالك ، الى آخره !

تخلخل المجتمع المصرى حتى بات يمينه لا يدرى شيئا عن شماله . أهذا خير أم شر ؟

الحـل

يجب أن تجتمع رؤوس الأطباء النفسيون مع كل المشتغلين بالعلوم الانسانية (النفسيين والاجتماعيين وأولى الرأى) فى مصر والبلاد العربية لوضع سيكولوجية جديدة عربية ، فكل الشعوب العربية متقاربة وقد يسبق شعبا عربيا شعبا آخر فى التقدم (الديمقراطية مثلا) ولكن سرعان ما يخطو الشعب الآخر الى الأمام ويلحق به .

ولا عذر لأحـد اذا قال ان عندنا سيكولوجية عربية ،. فهذا غير صحيح ، أو أن الطريق مازال آمامنا طويل الى أن تصبح لنا سيكولوجية خاصة بنا مدروسة وموضوعة • والى أن نصـل الى ذلك الهـدف المرجو ، سـنظل معتمـدين فى أيديولوجياتنا (مفاهيمنا) على الشعوب الغربية •

لا عذر لأحد اذا تقاعسنا أطول من ذلك ولم يكن لنا طب نفسى خاص بنا •

ان الطب النفسى ليس سياسة ، ولا اقتصاد، ولا صناعات وتكنولوجيـا ، وانما هو علم نابع من سـلوكياتنا وكلامنـا وعاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا ، ويجب أن يكون مفهوما من الجميع نابعا من بيئتنا •

معجم للطبّ النفسي المبسّط

الأفعال الارادية : أفعال تنشأ عن الوعى (العقل الواعى) وموجهة الى هدف معين ، ويتوفر فيها القصد (النية) واتخاذ القرار •

احتفاظ : عمل من أعمال الذاكرة بين انتسجيل والاسترجاع .

استبدال (تعويض) : كأن يستبدل الانسان شيئا بغيره بوعى أو بدون وعى ، كما يحدث فى حالة فقدان شيىء عزيز بعد فترو الحداد ، وقد يكون الشيىء المستبدل انسانا أو فكرة أو معنى • قال قيس لليلى :

اتركينى بلاد الله واسعة
غد (أبدل) أحبابا بأحباب

ايحاء ـ ايعاز : مدى ما يتقبله المرء ، ويعمل به ، من أفكار الآخرين • بعض الناس آكثر ايحاء من غيرهم • وتزداد القابلية للأيحاء فى بعض الأمراض كالهستيريا ، وتصدع الشخصية (الفصام) وفى حالات التنويم المغناطيسى والسحر •

الأنا العليا : الضمير ، استعداد نفسى لادراك الحق من الباطل من الأعمال والأقوال والافكار والتفرقة بينها • وفى لغة التحليل النفسى ، الجزء من العقـل الباطن الذى

يحوى نواهى وأوامر الآباء خلال فترة الطفولة المبكرة •
ومن خواص الضمير نقد النفس والتأنيب ، والشعور
بالذنب والحقارة •

استدعاء : استرجاع فى الذاكرة •

اسقاط : عملية توافقية فيها ينسب الى الآخرين صفات
ورغبات وشعور واتجاهات المرء الغير مرغوب فيها منه
أو التى ينكر فى دخيلته الاعتراف بها • هو الخاطىء
والعاصى والقبيح ولست أنا • ويلاحظ أن العمليات
التوافقية عمليات لا واعية تجرى فى العقل الباطن • وقد
تثبت الأفكار المسقطة فى حالة المرض فتصبح فكرة
ثابتة خاطئة غالبا ما تكون عدوانية •

ادراك : احساس + معنى ، أى اكساب الأحاسيس معانى على
مستوى الوعى • ادراك الصورة على أنها صورة فتاة ،
أو الادراك بما لمس نقودا •

استبصار : ادراك الموقف ، أو المرض ، على حقيقته ومعرفة
أبعاده وخطورته • عنده بصيرة بحاله أو موقفه •
وطبيعى أن تذهب البصيرة ، والاستبصار ، فى حالة
المرض العقلى •

الهام : ما يورد على الوعى (العقل الواعى) من معان
وأفكار دون تفكير مسبق •

انطوائى : انسان يرى الدنيا من وجهة نظره هو لا من وجهة
نظر الآخرين • والانطوائية تعود واتجاه فى السلوك
يعتاد المرء عليه وأحيانا قد يحيد عنه اذا دعت الظروف •

احباط : ابطال السلوك واعاقة الهمم عند الفرد مما يقتل

عنده الدافع فلا يفعل شيئا من تلقاء نفسه • أصيب بالاحباط بعد كساد تجارته فلزم داره ولم تذهب الى دكانه •

الأسى : الحزن • والحسرة = شدة التلهف مع الحزن كما يحدث فى حالة الحداد على الميت •

الهو : (بضم الهاء وفتح الواو) الجانب الشهوانى من النفس ، ويأتى فى التكوين التحليلى للنفس تحت الأنا •

الانشقاق : أو التفكك العقلى هو تصدع الوعى بحيث تعمل كل جهة منه وحدها منفصلة عن غيرها • ويعمل الجزء المنفصل تلقائيا بذاته ، كما فى حالات الهروب من الواقع واكتساب المرء لشخصية مختلفة عن شخصيته الأصلية •

انفعال : ادراك الوعى لمشاعر يصاحبها تفاعلات جسمية فيتأثر بها المرء بفرح أو حزن • وخطواتها ، احساس ثم شعور ثم انفعال •

انبساطى : عكس انطوائى ، الشخص الذى يرى الدنيا من خلال وجهات نظر الناس (يونج) •

ازاحة : عملية دفاعية لاشعورية فيها تتحول العواطف أو الانفعالات من الفكرة الأساسية ، الأصلية ، أو الهدف أو الشخص ، الى أخرى أقل تهديدا للمرء وأكثر اطمئنانا له • كأن يتشاجر مع زوجته بدلا من أن يفش غليله فى رئيسه •

أو تحويل الرغبات غير المشروعة (الشهوات) فى « الهو » من طريق خطر الى طريق أسلم وأكثر أمانا •

كأن يلعب رياضة أو يسافر أو ينشغل بالكتابة بدلا من التورط فى حب غير مشروع ·

ادمان : حالة من الاعتماد النفسى والجسمى على مخدر (أو منبه) بحيث يضار المدمن نفسيا وجسميا اذا لم يتعاط المادة المدمن فى أوقات متقاربة ، ومعظم المدمنين مضطربين نفسيا ·

انكار : عملية توافقية لا شعورية فيها يتغاضى انسان أو يقلل من اتجاه واعى معين واحلال محله رغبة مشروعة ، وعادة ما يتحمس لها تحمسا كبيرا · فمثلا يتحمس انسان ضد شرب الخمر ويدعو الى الابتعاد عنها لأنه لا شعوريا يحب شرب الخمر · كذلك التحمس ومهاجمة الميول الجنسية المثلية ·

أفكار خاطئة : اعتقاد راسخ لا يتغير ، ولا يقبل المنطق الصحيح ، ولا يتفق مع مجتمع وتعليم وثقافة المريض · والأفكار الخاطئة قد تكون حزينة مثل الاعتقاد بارتكاب الآثام أو التفاهة أو الفقر أو بأنه مقضى عليه أو مصاب بأمراض خطيرة · وقد تكون رومانسية حول أشخاص لا يتصل بها المريض كممثلة سينما أو أميرة من البيت المالك ترسل له خطابات · وقد يكون الاعتقاد بأن المريض من العظماء ، المسيح المنتظر مثلا ، أو ذو قوة خارقة · ومنها اعتقاد الاضطهاد من الآخرين ، والشك فى نواياهم ، والتحامل عليهم ، وقد يعتقد المريض بأن البيئة كلها تضطهده لأسباب يبديها ولا تتفق مع الواقع والمنطق · ومنها أفكار الغيرة الزوجية المرضية ، الزوجة لها عشيق ·

ملحوظة : تسمى الأفكار الخاطئة فى لغة الطب النفسى «ضلال» و «هذاء» والمؤلف لا يوافق على هذين المسميين لأنهما غريبان على الآذان ٠

بصيرة : ادراك معنى المرض وأعراضه من المريض ، وكيف نشأت الأعراض وتطورت الى مرض ٠ وتعود البصيرة الى المريض بالعلاج بالعقاقير أو التحليل النفسى ، أو تلقائيا عندما يشفى من نفسه بدون علاج ٠ وبديهى أن المريض الذى عنده نصف أو شبه بصيرة أقرب الى الشفاء وأكثر استفادة من العلاج من المريض الفـاقد البصيرة تماما ٠

التنفيس : أو التنفيث أو فش الغل ٠ فى العلاج بالتحليل النفسى الاسعافى أو الضرورى ، وهو الافصاح عن أو اخـراج عواطف قوية مكبـوتة ، لينفث المـريض عن صدره ٠ وأحيانا تستعمل العقاقير لتساعد المريض على التنفيس عن نفسه ٠ ولا يوافق المؤلف عـلى اصطلاح « تفريغ عقلى » المستعمل حاليا فى الطب النفسى ، لأن المريض لا يمكنه طبعا « تفريغ » عقله !

تمثيل : يطلق هذا الاصطلاح على السلوك غير الطبيعى (غير المعقول) الناتج عن شحنات عاطفية ٠ ويحدث هـذا السلوك من المرضى أثناء عملية العلاج النفسى اما مع الطبيب المعالج ليلفتوا نظره الى أنهم واقعون فى حبه بطرق شتى ، أو مع الغير ليثبتوا أنهم قادرون على العطاء مثلا ٠ وعادة ما ينهى الطبيب بلطف عن التمثيل معه أو مع الغير حتى لا يحدث للمريض مالا يحمـد عقباه ٠ ويكف المريض عن التمثيل عند شفائه ٠

تكيف : (الشدة على الياء) تغير سلوك الانسان ليلائم بأكثر فاعلية البيئة التى يعيش فيها ،وذلك من ناحية الشعور والوجدان والتفكير والاتجاه ٠

تصدع الشخصية : اصطلاح يقترحه المؤلف ليحل محل اصطلاح « الفصام » الذى لا يدل على شيىء من واقع المرض وتطوره ، مثله كمثل اصطلاح «الشيزوفرينيا» فى اللغة الغربية ٠

تباطؤالشخصية : اصطلاح يقترحه المؤلف ليحل محلاصطلاح « الاكتئاب » ، لأن تباطؤ الشخصية ليس اكتئابا ، أى حزنا وانكسار نفس ، فقط وانما كما هو ملاحظ « تباطؤ » فى جميع نواحىالشخصية ، التفكير والعاطفة والسلوك ، وقد تستمر الشخصية فى التباطىء الى أن تتوقف ، وهو ما نعبر عنه بالسبات أو الجمود أو الخدر (أنظر مرض الاكتئاب) ٠

تسامى : الارتقاء بالشهوات الى وسائل مشروعة ، بالتصوف، عشق الروح ، الكتابة والشعر ، فعل الخير عن طريق الجمعيات الخيرية ، والتسامى عملية توافقية (دفاعية) لا شعورية ٠

تبرير : عملية توافقية بها تخضع للواقع والمنطق عمليات أو سلوكيات غير معقولة أو منطقية ٠ وبذلك يمكننا أن نحقق رغبات أو سلوكيات مكبوتة غير مشروعة ٠ مثل، الغش فى التجارة من أصول التجارة ، الغاية تبرر الوسيلة ، النبى قبل الهدية ٠

تعزيز : عندما يثاب انسان على سلوك معين فالثواب (المكافأة) يعزز هذا السلوك ويقويه فى الانسان ٠ وتستعمل

طرق التعزيز فى علاج الأطفال شـديدى الانطواء .
ومن هذا أيضا أن النجاح يشجع (يعزز) على النجاح مستقبلا .

تثبيت : فى التحليل النفسى، حيث يفترض أن نموالشخصية يمر بعدة مراحل جنسية الى النضوج فى سن البلـوغ وهى مرحلة الهيام بالجنس الآخر . بعض الانفعالات والعلاقات بالغير أثناء النمو قد تعوق من المـرور الى المرحلة التالية وبذلك يتوقف النمو الجنسى و «يثبت» عند مرحلة قبل البلوغ . فمثلا ، التثبيت على مرحلة الفم أو الشرج . وهناك التثبيت على الأم أو الأب أو من يمثلهما . (فى هذا المعنى الأخير أنظر قصة الصورة فى الجزء الثانى من الموسوعة) عندما يحدث التثبيت عند المرحلة الشرجية أثناء الطفولة المبكرة فان الشخص يكون له عند البلوغ « شخصية شرجية » وتتمثل فى حب النظام والشح والعناد .

الشخصية : مجموع الأفعال وردود الأفعال التى تميز سلوك انســان عن غيره . وتوصف الشـخصية عادة بصفات تميزها أو تحددها ، كالشخصية الطبيعية (أو فى حدود الطبيعى) والشاذة والمهسترة .. الخ .

استرخاء : من استرخى الرجل أى استلقى مرخيا عضلاته : حالة من الراحة مع هـدوء النفس والاقلال من تـوتر العضـلات . والتمرينـات المتتـالية للمريض لتعلـم الاسترخاء هى من بعض أصـول العـلاج السلوكى . ويمكن الحث على الاسترخاء بالايحاء ، التنويم المغناطيسى واعطاء عقار الباربتيورات فى الوريد .

والفكرة عكسية ، اذ المعروف أنه اذا انبسطت النفس

استرخت العضلات فننعم بالاسترخاء الكامل • هنا اذا استرخت العضلات استرخت النفس وانبسطت •

اضطراب نفسى : توتر واضح وعدم استقرار مصحوبة بقلق أو تباطؤ الشخصية (اكتئاب) • فى الحالات الشديدة قد يصعب على المريض الثبات مع التركيز لأكثر من بضع ثوانى • وتكون الأفكار مشتتة •

أراجيف : وصل ذكريات غير مترابطة بعضها ببعض لعمل حكاية تبدو مترابطة معقولة فى الظاهر فقط بينما هى لا أساس لها من الصحة ، كما يحدث فى مرض العتة •

اختلاف الذات : شعور بغيض بعدم الاحساس بالواقع أو الانفصال عنه بالجسم والحركة • وقد يصاحبه احساس باختلاف الواقع نفسه • يحدث اختلاف الذات مؤقتا فى أشخاص طبيعيين وفى عديد من الأمراض النفسية •

اختلاف الواقع : شعور بغيض بأن الواقع (البيئة المحيطة بالفرد) غريب غير حقيقى ، بعيد ، مجسم وكأنه مصنع (كالكارتون فى السينما) • عادة يصاحب حالات اختلاف الذات • ويحدث أيضا مؤقتا فى أشخاص طبيعيين ، وفى عديد من الامراض •

أماكن اللذة : التى تثار باللمس أثناء العملية الجنسية وهى الأعضاء التناسلية بما فيها الثديين والأغشية المخاطية حول مخارج الجسم كالفم والشرج • ولأماكن اللذة أهمية فى لغة التحليل النفسى •

بارا سيكولوجى : ماوراء علم النفس، ويهتم بالادراك خارج الحواس ، توارد الخواطر ، وظواهر أخرى تعتبر خارج مقدرة الانسان العادى •

تأهيل : طرق تعليم المريض أو المعوق ليصبح متأهلا اجتماعيا ونفسيا وجسميا بعد خروجه من المرض ، وبهذا نجعله ونمكنه من أن يعيش عيشة مستقلة فى بيئته بما تبقى له من قدرات لم يقض عليها المرض • وتدعى أيضـــا « تأويب » من أب = رجع الى حيث كان قبلا •

تذكر : استعادة حوادث سابقة وحقائق الى الوعى بعـد أن سجلت وحفظت فى الذاكرة • ويشمل التذكر عمليات الاسترجاع ، وجمع الذكريات ، والتعرف عليها •

التنافس الأخوى : مصحوبا عادة بعواطف قوية ليحوز الأشقاء على محبـة وموافقة واهتمـام وحب أحـد الأبوين أو كليهما • وهذه قد تنعكس فيما بعد فى السمات والسلوك الشخصى لأحد الاخوة وتحدد علاقاته بزملائه والغـير خارج نطاق الأسرة • بعضنا يتملق الرئيس ليحوز على اعجابه ولفائدته أكثر من الآخرين •

تجوال ليلى : المشى أثناء النوم ، وقد يحدث أحيانا ومؤقتا فى الأطفال • يعتبر فى البالغين دلالة على أنهم يعانون من شدة ما • ونادرا جدا اذا آذى المتجول بالليل نفسه • أحيانا يتجول المريض على غير هدى وهو صاح وليس نائما •

تبادل الخواطر : خاصية لم تثبت علميا فيها يتلقى انســان مشاعر أو أنباء من انسان آخر على البعـد من غير أو خارج وسائل الاتصال الحسية (أى بواسطة الحواس) •

تعدى : سلوك عضلى أو لفظى عنيف مصحوبا بعاطفة غضب

شديد وشعور عدائى نحو شخص آخر أو أشـخاص ٠ وقد يكون التعدى واقعيا ومفيدا لأخـذ حق واثبـات ذات ، أو مرضيا اذا كان متوهما ومحطما للذات ، أو فى غير محله وضار بآخرين أبرياء ، أو للتنفيث عن صراعات عاطفية ذاتية لم تجـد لهـا مخـرجا الا فى التعدى ٠

تضارب العواطف : وجود عواطف مضادة ومتناقضة (كالحب والكره) أو اتجاهات أو دوافع فى شخص ما نحو شخص آخر أو موقف معين ٠ وهذا التضارب العاطفى يظهر فى سلوك المريض أو كلامه ويؤدى الى عدم البت فى الأمور والتردد ٠ ويدل تضارب العـواطف عـلى وجود صراع عاطفى داخلى فى نفسية المريض ٠

التداعى الحر : فى التحليـل النفسى وهـو أن يدع الطبيب المريض يتكلم عما يعن له من أفكار دون أن يجد حرجا شديدا فى الافصاح عنها بقدر الامكان ٠ انه نوع من عرض ما يعتمل فى النفس بدون رقيب ليأخذها الطبيب نواة يفسر بها ظواهر نفسية ٠ وتعتمد هذه الطريقة فى التحليل النفسى عـلى أن المـريض يجب أن يخبر الطبيب عن كل أفكاره مع التركيز التام من المـريض أثناء اخباره للطبيب بها ٠

توهم المرض : تفسـير غير واقعى وبالتفصيل عن ظـواهر واحساسات جسمية تبدو للمريض غير طبيعية ، وتؤدى الى الانشغال أو الاعتقاد مع الخوف من اصابة المريض بمرض أو أمراض خطيرة ٠ وقد يكـون توهم المرض ظاهرة بذاتها أى أوليا ، أو عرضا من أعراض مرض

نفسى كتصدع أو تباطؤ الشخصية (الفصام أو الاكتئاب) .

تقمص : توحد أو لبس قميص الغير . تبنى شخصية أحد . وهي الوسيلة التى ينمو بها الأطفال آخذين من شخصية الوالدين . وكثيرا ما يتقمص طالب العلم شخصية أستاذه وبذلك يمكنه بسهولة من التشرب من علمه . والسكرتير مديره الذى يحبه فيقلده فى حركاته ويتكلم بلسانه وبلهجته .

تنقل العواطف : عملية بها تنتقل مشاعر ايجابية أو سلبية من هدفها الأصلى أثناء مراحل الطفولة المبكرة لتتركز فى شخص أو هدف هام فى الحياة المستقلة بعد البلوغ. يحب أو يكره انسان رئيسه لأنه لا شعوريا كان يحب أو يكره أستاذا له أثناء طفولته ، أو أحد والديه . وقد تدخل هذه العملية اللاشعورية فى نجاح أو اعاقة العلاج سواء النفسى أو الطبى ، ويكون شعور المريض نحو طبيبه النفسى ، بالحب أو الكره ، من تنقل العواطف ، وهذا هام جدا فى تفسير وعلاج مشاعر المريض فى العلاج بالتحليل النفسى . عادة ما تنتقل العواطف من المريض الى الطبيب ، ونادرا ، لعيب نفسى في الطبيب، قد تنتقل من الطبيب الى المريض .

الجنس البديل : شعور ملح ودائم وغير سار ينتاب مرضى نحو انتمائهم الى نوع جنسهم التشريحى يؤدى بدوره الى رغبة ملحة فى التخلص من الاعضاء التناسلية جراحيا ليعيش كانسان من النوع الآخر. الرجل يريد أن يصبح امرأة ويقبل فى المجتمع كونه امرأة ، أو العكس المرأة كرجل . ويصر هؤلاء عادة على أن تجرى لهم عمليات

جراحية (أنظر حالة المريضة موال فى باب الجنس فى الجزء الأول من الموسوعة) .

الخرافة : اعتقاد غير معقول فى احداث تغيير ، سحر ، أو ضرر لأشياء غير ضارة أو التنبؤ بحدوثها . والخرافات من الأفكار الخاطئة (الضلالات أو الهذاءات) بعموم الاعتقاد بها فى مجتمع ما ومن أشخاص طبيعيين . التشاؤم من رقم ١٣ فى الغرب ، ومن ساعة نحس يوم الجمعة فى مصر .

خيال : تصور تسلسل أحداث غير واقعية تجرى فى مرآة العقل كما يحدث فى أحلام اليقظة وعند فعل العادة السرية . وقد يكون الخيال أساسا للتفكير والعواطف والسلوك . وفى التحليل النفسى يعتبر بعض السلوك الواقعى منشؤه خيال فى العقل الباطن . وتعتبر أحلام النائم مظهر من خيال العقل الباطن .

الرمز : شيىء مادى فى الواقع يمثل شيئا أو فكرة فى العقل الباطن . وفى التحليل النفسى يمثل الرمز شيئا مستبدلا أو مزاحا أو متحورا من أشخاص أو أشياء أو نشاطات مكبوتة . و « الرموز الأزلية » تمثل محتويات موجودة فى العقل الباطن السلالى (أنظر الرموز الأزلية عند يونج فى الجزء الأول من الموسوعة) .

ذروة الشهوة : نهاية الشبق : رجة عصبية فسيولوجية تحدث نهاية الجماع وتتميز بقمة احساس بلذة وتوتر عام فى عضلات الجسم يصحبه انقباض وانبساط ، ويعقبه انحلال عام للتوتر واسترخاء بعد حدوث القذف . وتعتبر ذروة القذف لازمة لصحتنا النفسية .

السادية : انحراف جنسى فيه يحدث القذف أو التهيج الجنسى بعد احداث آلام أو تعذيب فى الشخص المفعول فيه · أخذ هذا الوصف ن كتابات (مذكرات) المركيزدى ساد (١٧٤٠ ـ ١٨١٤) · ويتمثل الانحراف فى أعمال العض والخربشة بالاظافر الطويلة الى الضرب المبرح المؤدى أحيانا الى الموت ·

السادية الماسوكية : وفى هذا النوع المشترك يحدث التهيج الجنسى باحـداث الألم فى الشريك وفى نفس الـوقت احداث آلام فى نفس الشخص الفاعل ·

سبات : حالة مرضية تنعدم فيها الحركات الارادية أو ظهور العواطف فى حالة من الوعى أو بين الوعى واللاوعى · وتدل أحيانا على اصابة الفص المقدم من المخ أو وجود أورام ، وفى هذه الحالات الأخيرة يكون هنـاك تغبش (كأنه ضباب) فى الوعى · ويحدث السبات فى تصدع الشخصية التخشبى (الفصام الكتاتونى) وفى مرض التباطؤ النفسى (الاكتئاب) ·

شدة : تغير أو تدخل فى مجرى الحيـاة العـادى تؤثر فى الانسان تأثيرا ضارا أو معاكسا كان تبعث فيه قلقا أو ميـلا الى التعدى خاصـة اذا استمرت الشـدة · واذا استمرت الشدة أو الشدائد لفترة طويلة فقد تتسبب فى حدوث أمراض نفسعضوية · وغالبـا ما لا يعـود الانسان بعد الشدة كما كان قبلها ·

الشعور بوفرة الصحة : حالة عاطفية ايجابية (سرور + زهو) لا تتفق وواقع الحال من مرض أو سوء موقف معين · وهذه الحالة الشعورية تحدث مؤقتـا ولا تسـتمر كل

الوقت • وشبيه لها حالة السكر الخفيف (نشوة الخمر) أو عند تناول حبوب الأمفيتامين المنشطة •

شفق الوعى : أو غبش الوعى : حالة بين الوعى واللاوعى (بين النهار والليل) لا يكون خلالها المريض واعيا تماما لما يفعل أو يحدث حوله ، عادة ما تستمر بضع ساعات ثم تنقشع • وتوجد فى حالات المرض العضوى، بعد نوبة صرع (التشنج الكبير) •

الشفقة : عاطفة = رحمة + حنان • أو = خوف من حلول مكروه •

صلابة : سلوك أو اتجاه لا يلين ولا ينثنى ولا يتفاهم ولا يتراجع • (منشى وواقف زى العقلة فى الزور) • نوع من أنواع الشخصية •

صراع : تصادم بين ميول أو دوافع أو أسبابها ، لا تتفق ولا يمكن التوفيق أو التصالح بينها • وقد يكون الصراع فى الوعى أو فى اللا وعى ، وقد تؤدى الى حالة قلق • فى التحليل النفسى يكون الصراع بين مكونات النفس (الهو أو الأنا) ورغبات فى الوعى وتتسبب فى حدوث العصاب (أنظر الجزء الأول) •

طقوس : اصطلاح له مختلف الدلالات فى مختلف المجالات ، كعلم الأجناس والاديان وغيرها • فى الطب النفسى يشير الى سلوك متكرر بذاته فى نوبات يفعله مريض القهر والتسلط بينما يكون مرتاح النفس لتكرار عملها ولا يشعر أثناءها بالقهر أو التسلط • ويقوم بعض مرضى تصدع الشخصية بعمل طقوس يفكون بها سحرا أو عملا متوهما •

عاطفة : انفعال ـ وجدان ـ مزاج ـ مشاعر • (تقريبا) •

عتـه : اصطلاح يشير الى تدهور عام فى الذاكرة ، الفهم والتميز مع ثلامة وعدم ضبط الانفعالات مع اهتزاز الشخصية وتداعيها مصحوبا بانحطاط فى العادات اليومية والنظافة الشخصية • أهم شيىء فى العته هو ذهاب الفهم ، ولو أن ذلك قد يتأخر ظهوره الى ما بعد حدوث تدهور فى الذاكرة أو التميز أو العادات •

اللاوعى : صفة تشير الى أفكار ومشاعر أو أحداث لا تدخل فى وعى الشخص • منها مالا يمكن استرجاعه لوقوعه دفينا فى اللاوعى • وقد يحول الكبت (فى عرف التحليل النفسى) بين استرجاع الأشياء اللاواعية • وبطريقة ما تؤثر الأشياء اللاواعية فى السلوك والاتجاه •

العادة السرية : عملية تنبيه القضيب أو البظر (فى النساء) غالبا باليد أو اصبع فى حالة المرأة ، للحصول على تنبيه ولذة جنسية تنتهى عادة بقمة النشوة (القذف) • وعادة يصاحب عمل العادة السرية خيال جنسى سار •

الغريزة : فى الحيوان ، دوافع وسلوك تتقرر وراثيا مثل الرضاعة ، والسلوك الجنسى ، تملق الجنس الآخر ، الغرض من السلوك الغريزى هو استمرار الحياة مع التغلب على صعاب البيئة • البعض ينكر وجود الغرائز فى الانسان • ويقول فرويد ، مما لا يتفق معه بعض المحللين ان هناك غرائز فى الانسان تدفعه الى التمسك بالحياة ، وأخرى تجعله يندفع نحو الموت •

غريزة الموت : قال بها فرويد سنة ١٩٢١ ولا يوافق عليها العديد من المحللين مما دعا فرويد الى تطوير ان غريزة

الموت هى أقوى الغرائز فى الانسان · ان الحياة صراع بين الحياة والموت فيها يتغلب الموت فى النهاية على الحياة · بعض الناس يوردون أنفسهم مورد التهلكة ·

كبت : من العمليات التوافقية المهمة · وهو عملية تهدف الى دفع الفكرة أو الدافع الى العقل الباطن بعيدا عن وعى الانسان · ويعتبر فى التحليل النفسى أن الأنا والأنا العليا (الضمير) هما العاملان على الكبت · ويعتبر القلق هو الدافع على الكبت · كما يعتبر الكبت عاملا من عوامل اعاقة السلوك ·

قلق المفارقة : يتسبب فيما بعد من انفصال طفل عن أمه أو بديل الأم قبل السنة الثانية أو الثالثة من عمره · ويلاحظ فى هذا السن ان الطفل يتبع أمه، أو بديلتها، أينما ذهبت وكأنه ماسك ذيلها كما يقولون · كثير من أطفال هذا العمر يذهبون الآن الى الحضانات ، فهل سيصاب هؤلاء فيما بعد بعصاب قلق المفارقة ؟!

القناع : الاصطلاح لكارل يونج · ويقصد « الوجه » الذى يبديه المرء للعالم الخارجى · ويخفى وراءه حقيقته التى لا يريد من الناس أن يروها حتى لا يطمعوا فى نقط الضعف فيه أو ، كما يقولون يظهرهم على عوراته · ويتناسب سمك وصلابة وعتامة القناع تناسبا عكسيا مع نضوج الشخصية · ويلعب القناع دورا هاما فى العلاج النفسى على طريقة يونج وما يعرف بعلم التحليل النفسى الفردى ·

مبدأ اللذة والألم : اصطلاح فى التحليل النفسى · وهو خاصية الميل الى ارضاء الحاجات السارة وتجنب الألم وتأخير اللذة · وهى خاصية الدافع فى النفس غير

الناضجة ، كما فى النفس الطفلة • وفى النفس الناضجة يتحكم أو يؤثر « مبدأ الواقع » فى مبدأ تلمس اللذة وتجنب الألم •

مقاومة : التردد فى مواجهة الحقائق الشخصية وتفاديها بتجنبها ومواربتها أو تحريفها • وتستعمل العمليات التوافقية المعارضة ومواجهة الدوافع الخفية وعدم ظهورها فى الوعى حتى لا يواجهها الانسان • دوافع جنسية أو خلقية غير مشروعة •

مرحلة أوديب : فرويد • الفترة فى نمو الشخصية بين السنة الثالثة والخامسة وفيها يكتشف الطفل الفروق التشريحية بين الجنسين وحينئذ يهتم اهتماما خاصا بعملية التناسل والعلاقة بين الجنسين • فى هذه المرحلة يختار الطفل داخليا الى أى من جنس الوالدين ينحاز ، وبهذا يقرر « الدور » الذى يريد أن يكونه مستقبلا •

الماسوكية : اشباع الجنس عن طريق احداث الألم الجسمانى والمهانة النفسية من الشريك • وأحيانا تكون ممزوجة بالسادية التى هى عكسها • وأحيانا يستعمل هذا الاصطلاح فى غير السلوك الجنسى ، حينما يحلو للبعض تحمل المذلة والمهانة والشقاء فى الحياة عامة •

نكوص : الرجوع الى مستوى أقل أو سابق فى النمو النفسى والأداء (التكيف) • والاصطلاح لفرويد وأتباعه • ومراحل النمو فى مدرسة فرويد هى : ما قبل الولادة ، الطفولة (وتشمل مراحل الفم ، الشرج ، والأعضاء التناسلية) وسن البلوغ ، المراهقة ، والبلوغ ، ثم سن اليأس ثم الشيخوخة • ويحدث النكوص (من نكص على عقبيه) فى حالة مواجهة الشدائد (أنظر الشدة) التى

لا يقوى عليها أو فى حالة المرض ، وقد يكون النكوص مؤقتا ، وقد يدوم • فمثلا ، قد يعود النكوص بالفرد من مرحلة البلوغ الى مرحلة المراهقة • أنظر قصة « شخصية كاتبة » فى الجزء الثالث من الموسوعة •

النرجسية : اصطلاح فى التحليل النفسى مأخوذ من خرافة « نرسيس » الذى وقع فى هوى صورته فى صفحة الماء • ويفسر فرويد النرجسية بارتداد الطاقة النفسية من الاهتمام بالغير الى الاهتوام بالشخص نفسه • وقال ، بوجود نرجسية ابتدائية فى الطفل ، ثم يتجه بطاقته الجنسية الى الغير ، ولكن آبدا تكون بعض الطاقة الجنسية مهتمة بالذات على طول مدار النمو النفسى • وفى حالة الشدة أثناء فترة البلوغ قد ترتد الطاقة الجنسية بكاملها الى الاهتمام بالذات ، وعندئذ يصاب المرء بما يدعى بالنرجسية الثانوية •

مذهب الوجودية : مذهب فلسفى ينادى بوحدة الانسان ومسئوليته حيال وجوده الذى لم يكن له فيه اختيار • ولهذا يجب أن يختار المرء طريقه فى الحياة بارادته الحرة مادام يتحمل مسئوليته كاملة • ومن لغة الوجودية • اتخاذ القرارات الهامة ، الرضى بمبدأ « وجود نحو العدم » • ولهذا فلا داعى للقلق الوجودى • يجب أن يتعرف الانسان على « الحقيقة » ، حقيقته (أنظر دفاع عن الوجودية فى الجزء الثانى) •

…يت الكتاب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٩/٥١٩٢

ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ٢٢٠١ — ٧

● ● هذا الجزء الثالث من موسوعة الطب النفسى المبسط امتداد للجزئين الأول والثانى اللذين يجب قراءتهما معه حتى تعم الفائدة .

فيه المواضيع العلمية الهامة مثل دراسات فى الشخصية ونظرية « الجنون العام » التى استحدثها المؤلف لتسد نقصا فى معلوماتنا عن النفوس وهى تعمل .. وغيرها .

وفيه القصص النفسية القصيرة الهادفة بحيث تخدم وتوضح كل قصة فكرة أو شائبة او هنة نفسية معينة .

والكتاب ، كسابقيه ، يعكس فى مجموعه خبرة المؤلف الطويلة وانطباعه الخاص عن الطب النفسى .

٣٧٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب